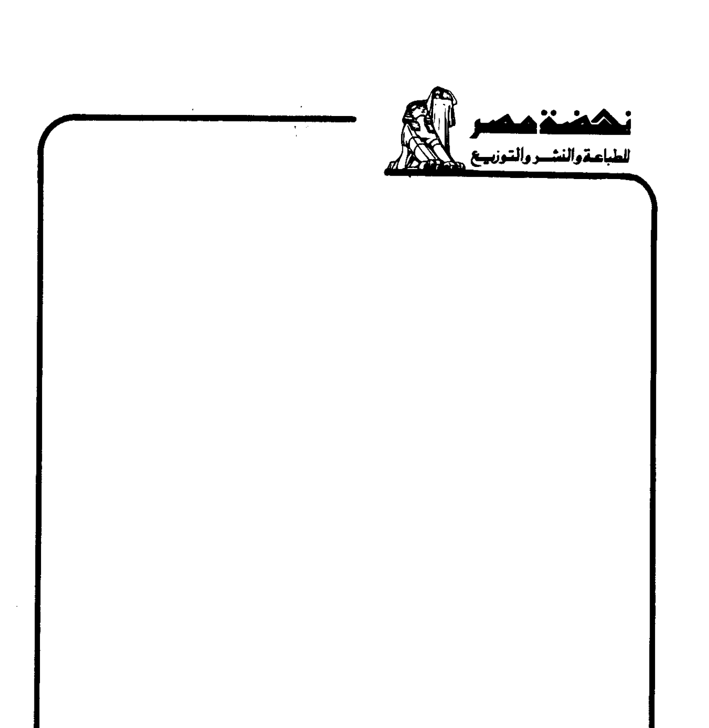
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع



قطايف

جمال بدوى

٢

- **اسم الكتاب :** قطايف [٢]
- **اسم المؤلف :** جمال بدوى
- **تصميم الغلاف :** رضا المنياوى
- **تاريخ النشر :** مارس عام ١٩٩٢
- **الناشر :** نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة ج.م.ع

تليفون: ٩٠٨٨٩٥/٩٠٩٨٢٧ فاكس: ٩٠٣٣٩٥ ص.ب: ٩٦ الفجالة ١٨ شارع كامل صدقى - الفجالة

هـذه القطايف !

يسعدنى أن أقدم للقارئ الكريم هذه الفصول التى استخرجتها خلال عملية تنقيب عشوائية فى تاريخنا الإسلامى ..

وأقول «عشوائية» لأنى لم أتعمَّد البحث عنها .. ولكنها تراءت لى أثناء الغوص فى بطون الكتب .. فأعجبت بها .. ورأيت أن أقدمها إلى القارئ كى يستمتع بها .. واخترت لها اسم «قطايف» .. وهى الحلوى الشهيرة التى اعتاد الصائمون تذوقها فى شهر رمضان .. وهى تختلف عن باقى الأطباق الدسمة التى تحفل بها الموائد الرمضانية ..

والفرق بين «القطايف» .. وغيرها من أطباق رمضان هو الفرق بين البساطة والدسامة .. فأهم مايميز القطايف أنها سهلة الهضم فضلا عن حلاوة مذاقها ، وتنوع مكوناتها .. وتاريخنا الإسلامى ثرى بهذا النوع من المواد الجذابة التى تمتع العقل والنفس معًا .. منها على سبيل المثال : المستطرف للأبشيهى ، وثمرات الأوراق للحموى، وأخبار الأذكياء لأبى الفرج بن الجوزى .. ناهيك عن نوادر البخلاء للجاحظ ، والأغانى للأصفهانى .. ففيها غناء لمن يبحث عن المتعة العقلية والثقافة التاريخية .

وأصارح القارئ العزيز ، بأنَّ أخشى ما أخشاه أن يتصور أننى أقدم له شيئًا مسليًا يخفف عنه عناء الصيام .. فمثل هذا التصور يؤرِّقنى .. لأنى أنتمى إلى مدرسة تنظر إلى التاريخ على أنه أداة للإزعاج واليقظة والوعى والتنوير .. وهو دعوةٌ شريفةٌ إلى النظر والتفكير والتدبر .. ومن ثم إلى التغيير والتقدم .. ولايمكن أن يكون مادة للتسلية أو تزجية الفراغ أو قتل الوقت (!!)

وجهة النظر إلى التاريخ لاتمنع من صياغة المادة التاريخية فى شكل جذاب .. أدبى أو قصصى أو

تمثيل .. فهذه كلها قوالب شكلية هدفها تقديم المادة التاريخية فى صيغة مقبولة غير منفِّرة ...

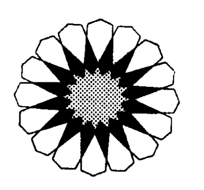
ورغم أن التاريخ يتحدث عن الماضى ، إلاَّ أنه يهدينا إلى المستقبل ، إنه يجذبنا جذبا إلى الوراء لنقلِّب صفحات الغابرين ، ونسبر أغوارهم ، وندرس أحوالهم ، دون أن نغفل لحظة عن الواقع الذى نعيشه ، ولا نتوقف أبدًا عن التطلع إلى المستقبل .

إن التاريخ هو ذلك المرشد المنصف المثقف الذى يطوف بنا المتاحف والمساجد والمعابد والمقابر .. ويأخذنا إلى آثار الأقدمين لنرى وندرس ونتعلم منهم كيف ارتفعوا إلى الذرى العالية .. ولماذا هبطوا إلى السفح .. فنضع أيدينا على عوامل السمو والرفعة والقوة .. وندرك أسباب السقوط والتدهور والانحدار .

● وتلك هى القيمة العظمى للتاريخ :

* العبـــرة مـــن المـاضـــى .
* والتفكـــر فـــى الحـاضـــر .
* والتطـــلع إلـــى المستقبـــل .

جمال بدوى



قطايف

العاشر من رمضان

لن تنمحى من ذاكرتى إشراقات هذا اليوم المجيد .. العاشر من رمضان ..

لم أكن يومها فى مصر .. كنا فى إحدى إمارات الخليج نساهم فى إصدار صحيفة يومية .. وكان الوقت عصرا عندما فرغت من عملى ، وغادرت مكتبى فى الجريدة ، واتجهت إلى شقتى التى تقع فى نفس الطابق وجلست أكتب رسالة إلى صديق .. ومن عادتى أن أكتب وأذنى مفتوحة على صوت المذياع .. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة (الثانية بتوقيت القاهرة) عندما قطع المذيع الإرسال ، وقال : إن راديو القاهرة أذاع منذ قليل أن بعض وحدات من القوات المسلحة المصرية تصدت لهجوم إسرائيلى ، وأن قواتنا قد عبرت إلى الضفة الشرقية من قناة السويس !!

تجمد القلم فى يدى .. وشعرت بدوار فى رأسى : هل هذا معقول .. ؟! كان الخبر المذاع لا يزيد على هذه العبارات ..

تركت الورق والقلم وأسرعت إلى مكاتب الجريدة .. كانت خاوية بعد انصراف العاملين إلى بيوتهم للإفطار .. تصفحت البرقيات التى تبثها أجهزة التيكرز .. رأيت الخبر مسجلا مسبوقا بعبارة «عاجل جدا» ، وفى نهاية الخبر تعليق يقول إن كل شىء هادئ فى القاهرة ولا يوجد أىُ شىء غير طبيعى ، وإن الحياة فى العاصمة تسير سيرا عاديا .. وإن راديو القاهرة استأنف بثَّ برامجه العادية بعد إذاعة النبأ المذكور ..

وتعجبت من هذا التعليق .. فلم نكن قد تعودنا هذا السلوك الإعلامىَّ الرصين .. واسترجعت فى ذهنى ذكريات مؤلمة عن يوم ٥ يونية المشئوم عندما كان صوت المذيع أحمد سعيد يشق أجواز الفضاء معلنا تساقط الطائرات الإسرائيلية كالعصافير أمام وابل النيران المصرية .. وكان الناس فى الشوارع يصدقون ويهللون ويكبرون بينما كانت الأناشيد الحماسية والمارشات العسكرية تزيد عواطفهم اشتعالا .. وكان .. ما كان .. !!

وكان تعليق وكالات الأنباء مثيرا للدهشة ، ولكننى لم أتوقف طويلا لتفسير هذا اللغز وأسرعت إلى التليفون واتصلت بأخى مصطفى شردى وأبلغته النبأ .. وأخذنا نتبادل بضع كلمات سريعة .. وكلٌ منا لا يصدق .. وكل منا يتمنى أن يكون ما سمعه صحيحا .. وقال لى مصطفى : انتظرنى .. فأنا قادم إليك حالا .. فالوقت لا يتسع للنقاش والجدل .. وعلينا أن نعمل سريعا على تعديل شكل الصحيفة ، ليتناسب مع خطورة هذا العمل العظيم .. ورفعت السماعة وبدأت أتصل ببقية الزملاء أبلغهم النبأ السعيد

وأطلب منهم الحضور فورًا .. وفى خلال دقائق كان معظم الزملاء قد تجمعوا فى مكاتب الجريدة .. وأخذنا نتصل بكل مصادر الأنباء .. ونحاول الاتصال بالقاهرة لنعرف منها مزيدا من الأخبار ، ولكن الاتصال الهاتفى فى ذلك الوقت كان مستحيلا .. وبدأنا نفتح أجهزة الراديو على محطات العالم ، ونلتقط منها كل ما تذيعه من أخبار وتوقعات .. حتى انتهينا من جمع حصيلة لا بأس بها من المادة الخبرية ، ثم توقفنا عند التقويم الأخير لما حدث : هل ماجرى مجرد مناوشة تدخل فى إطار حرب الاستنزاف .. أم هى الحرب الحقيقية التى ستمحو العار وترفع الهامة ، وتعيد العزة والكبرياء إلى العسكرية المصرية ..؟ وتغلبت وجهة النظر التى كانت ترى فيما جرى شيئا هائلا وليس مجرد مناوشة بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية عبر قناة السويس .. وأن الأبطال المصريين الذين عبروا القناة إنما يقومون بعمل أسطورى ليس له نظير فى الملاحم الكبرى التى سجلها التاريخ .. وصدرت الصحيفة وهى تزف إلى قرائها النبأ العظيم .. وفى اليوم التالى توالت الأنباء باكتمال العبور .. وتحطيم خط بارليف .. واندحار العنجهية الصهيونية أمام جبروت وإيمان وصبر الجندى المصرى ..

ويومها شعرنا برؤوسنا تطاول السحاب .. وأحسسنا بقلوبنا تنبض عزة وكبرياء .. وأدركنا أن نفحات رمضان قد فاضت على تماسيح النيل ، وهم يعبرون القناة .. فكان الله معهم .. ولم يتخل عنهم .



فضائـــل مصـــــر

لو عرف المصريون فضل مصر وسمو مكانتها وعلو قدرها لافتدوها بالمهج والأرواح ، ولحافظوا عليها كما يحافظ الإنسان على الدرَّة الثمينة ، ولجعلوها قرَّة أعينهم ، ومناط قلوبهم ، ولتشرفوا بالانتساب إليها ، ووضعوها فى المكانة الرفيعة التى ذكرتها الكتب السماوية ، وقررتها أقوال الرسل والأنبياء وأرباب الحكمة والعلم .

والتعبير عن حب مصر لا يكون بالصخب والزعيق وترديد الأغانى السخيفة والأناشيد المملَّة بمناسبة وبدون مناسبة ، ولكن بالارتفاع – سلوكا وخلقا – إلى مستوى البلد العظيم الذى نتشرف بالانتساب إليه ، وخصَّه الله بالذكر فى قرآنه المجيد دون سائر البلدان ، وشهد الله له بالفضل والعز والكرم والخصب وعظم المنزلة .. وكفى بالله شهيدا .

وجميع الملوك العظام والفراعين الصناديد والسلاطين العتاة الذين حكموا مصر ، وعرفوا قدرها وبذلوا الجهد الصادق فى الزوْد عنها ، والحفاظ على استقلالها ، وتدعيم كبريائها وكرامتها ، وصيانتها من التبعية للقوى العظمى ، وقاوموا جحافل الطامعين فى خيراتها وخصبها .. ويندر أن تأتى على ذكر واحد من هؤلاء

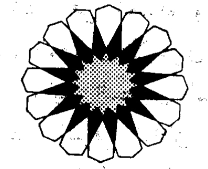
الحكام دون أن تجده قاد جيشًا لتأمين حدود مصر الشرقية ، وجرد حملة لتأديب البدو الليبيين ، وخصص الأموال لشق الترع وحفر المصارف لتنمية ثروة البلاد وإنعاش مواردها الزراعية .

ومن هؤلاء الحكام الذين عرفوا قدر مصر الأستاذ أبو المسك كافور (الإخشيدى) العبد الخَصِىُّ الذى اشتراه سيده وأدناه منه وعهد إليه بتربية أطفاله ، فلما مات الإخشيد ورث كافور بيته وعرشه ، والعجيب فى شخصية كافور أن المؤرخين شهدوا له بالعدل والكرم ومجالسة العلماء والأدباء ، فكان يحيط نفسه بكوكبة من فطاحل الشعراء ، وفيهم كبيرهم أبو الطيب المتنبى الذى انقلب على كافور لأنه لم يحقق له طموحه فى حكم أحد الأقاليم المصرية فهاجاه بأفحش الأقوال . ونعته بأقبح الصفات .

كافور ، هذا الذى لا يزال موضع استهجان المصريين بسبب لونه ودناءة أصله ، يرجع إليه الفضل فى تدوين فضائل مصر وجمعها فى كتاب يقرأه الناس ليعرفوا مكانة مصر عند الله وعند أنبيائه وعند أرباب العلم ، فأوعز إلى المؤرخ الشاب (عمر) ابن المؤرخ الفحل محمد بن يوسف الكندى – صاحب كتاب (الولاة والقضاة) – لتصنيف كتاب عن (فضائل مصر) ، فعكف على القرآن الكريم يستخرج منه الآيات الكريمة التى ورد فيها ذكر مصر صراحة أو ضمنا ، ورجع إلى كتب الحديث يستخرج منها أقوال النبى ﷺ فى الإشادة بمصر وقِبْطِها ، ثم رجع إلى آثار شيوخ المصريين وغيرهم من أهل العلم والخبرة والبحث والذكاء والفطنة .. وتوافر

له من كل ذلك حصيلة هائلة من المعلومات ، فصنَّفها وألَّف بينها فى كتابه (فضائل مصر) الذى ضمنه كل ما ورد فى فضل مصر ، ودعاء الأنبياء لمصر وأهلها ، والأنبياء الذين صاهروا القبط ، والأشخاص الذين ذكرهم الله تعالى فى كتابه من أهل مصر ، والحكماء الأقدمين الذين أظهرتهم مصر ، ومن عاش فى مصر من الصحابة الفقهاء والعلماء والزُّهَّاد ، ثم عرج على وصف مصر وبيئتها وجمال طبيعتها ونيلها .. وذكر الخواصَّ والعجائب الموجودة بها .. حتى مقبرة مصر فى المقطم كان لها نصيب فى كتاب الكندى .. فذكر كل ما قيل عن فضل هذه المقبرة .

وظل هذا الكتاب الجليل مرجعا لكل المؤرخين المشاهير ، ينهلون منه صراحة حينا .. ويختلسون منه أحيانا .. فالمؤرخ الأمين يتواضع فيذكر اسم صاحب الفضل .. والمؤرخ الشاطر يتجاهله وينسب الفضل إلى نفسه ، ويمكنك أن تجد فصولا كاملة من كتاب الكندى فى (حسن المحاضرة) للسيوطى ، و(صبح الأعشى) للقلقشندى ، و(نهاية الأرب) للنويرى ، و(الخطط) للمقريزى ، وغيرهم .. وغيرهم .. ولكن يبقى الفضل دائما لصاحب (فضائل مصر) فى الكشف عن عظمة مصر .



شخصيات

آل عبد الرازق

على بعد أمتار من قصر عابدين ، كان يقع قصر آل عبد الرازق في حى درب الجماميز ، ورغم الفارق الكبير بين القصرين فى الأبهة والفخفخة والضخامة ، فقد كان بيت عبد الرازق أكثر بهاء ورواء وأعظم تأثيرًا فى الحياة الثقافية المصرية ، وأشدَّ التصاقًا بالشعب من عابدين رمز الصلف والاستعلاء والعنجهية التركية التى تزدرى كل ما هو مصرى .

كان بيت عبد الرازق أشبه بجامعة أهلية مفتوحة يقصدها طلاب العلم من كل فجٍّ .. ومن كل جنس ودين .. ينكبُّون على خزانة الكتب الضخمة الجامعة يرشفون من بطونها عسلاً شهيًّا لذة للشاربين ، ويجتمعون حول رواد البيت ينهلون من بحر علمهم الغزير ، فأينما سرت فى أنحاء القصر شعرت بأنفاس أبى حنيفة والشافعى والغزالى وابن سينا والفارابى وابن رشد والأفغانى ومحمد عبده ، وأينما توجهت وجدت أشباح أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس تتحرك فى تؤدة .. وسمعت محاورات سقراط مع خصومه

السوفسطائيين ، وترامت إلى مسامعك أفكار سبنسر ودوزكايم وروسو وهوبز وأضرابهم من أقطاب الفكر السياسى والاجتماعى فى الغرب .. وحيثما جلست وجدت أشتاتا من العلماء والأدباء والمفكرين والدارسين والطلاب .. فيهم المصرى الأزهرى الذى تربى فى أحضان الثقافة العربية الأصيلة .. وفيهم المصرى المتغرب العائد توًّا من جامعات أوروبا .. وفيهم الشرقى الناطق بلسان الحضارة الإسلامية ، والمستشرق رسول الثقافة الغربية الباحثة عن موضع قدم فى بلاد العرب ، كان رواد البيت خليطا متعدِّدَ الألوان والثقافات والأصول والجذور .. جمعت بينهم ألفة العلم ، والرغبة فى المعرفة بغير قيود أو حدود ..

وكان قصر آل عبد الرازق فى درب الجماميز صورة كربونية من قصرهم فى قرية أبو جرج مركز بنى مزار بمحافظة المنيا .. الباب المفتوح لكل قاصد حيث يجد حسن الاستقبال . وكرم الضيافة وتلبية الحاجة .. وأخيرًا التشجيع على العلم والتعليم .. وكان شأن أصحاب البيت فى القاهرة شأنهم فى أبو جرج : قدوة فى البر والرفق والإحسان .. يأخذون بناصر المحتاج ، ويعلمون الفقير ، ويشاركون الناس أفراحهم وأحزانهم .. ويدفعون الشباب دفعًا إلى ارتياد دور العلم والاغتراف من بحر المعارف ، فى القاهرة يقدمون للطلاب مرتبات شهرية تعينهم على نفقات التعليم ، فضلا عن المعونة الأدبية والعلمية التى لا تقدر بمال ، وفى مسقط رأسهم أنشأوا أول مدرسة ابتدائية فى مديرية المنيا وهى مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية ببنى مزار ، وشجعوا صبية القرية على الالتحاق

بالمدرسة على نفقتهم إذا أعوزهم المال ، فغدت أبو جرج من أعلى قرى الصعيد نسبة فى عدد المتعلمين .

وكان رأس الأسرة (عبد الرازق) يتولى قضاء البهنسا عام ١٧٩٨ وظل أبناؤه يتوارثون مناصب القضاء حتى اكتسبت الأسرة لقب « عائلة القضاة » . وفى عصر الخديو إسماعيل اشتغل عميد الأسرة حسن باشا عبد الرازق بالسياسة وانتخبه أهالى مديرية المنيا نائبًا عنهم فى أول مجلس نواب مصرى ، فلما ظهرت الأحزاب السياسية فى مطلع القرن الحالى كان حسن باشا على رأس مؤسسى حزب الأمة عام ١٩٠٧ ، وصاحب امتياز «الجريدة» لسان حال الحزب ، وأنجب الرجل سبعة أولاد كانوا زينة المجتمع المصرى ثقافة وعلمًا وخلقًا .. ولعب معظمهم أدوارًا بارزة فى الحياة السياسية والثقافية والعلمية ، وتولى ثلاثة منهم منصب الوزارة هم : محمود ومصطفى وعلى ، وشاء القدر أن يلقى أكبرهم (حسن باشا) مصرعه على سبيل الخطأ ، عندما أرادت أحدى الجماعات الفدائية اغتيال عدلى يكن باشا ، وحسين رشدى باشا ، وتربصوا لهما أثناء خروجهما ليلا من دار حزب الأحرار الدستوريين سنة ١٩٢٢ ، ولكن القتلة لم يتبينوهما جيدًا ، وتصادف خروج حسن باشا عبد الرازق وإسماعيل بك زهدى ، فسقطا قتيلين ، ولعب أصغرهم (على) دورًا صاخبًا فى الحياة الفكرية لا يزال صداه يتردد حتى الآن منذ أصدر كتابه الشهير (الإسلام وأصول الحكم) .

أما أعظمهم قدرًا وعلمًا .. فهو فضيلة الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فله حديث آخر .

الإمـــام الأكبـــر

إذا أردت أن تتمثل صورة الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فيمكنك أن تستحضر مزيجًا من شخصية الإمام الشافعى فى علمه وأصالته ، وشخصية الفيلسوف ابن رشد فى عمقه وبصيرته ، وشخصية الإمام محمد عبده فى سماحته واستنارته . كان الشيخ مزيجًا من كل هؤلاء مضافًا إليه ما فطر عليه من خصال حميدة هى خليط من سمو الخلق وصفاء الطبع ، ونقاء السريرة ورقة الحاشية والحب الصادق لكل بنى البشر .

وصفه صديق عمره وبلدياته ورفيق دراسته فى صحن الأزهر طه حسين فقال : « كان يمتاز بين رفاقه بهذا الوقار الهادىء المطمئن الذى لا يتسم به الشباب عادة ، وكان جم الأدب ، موفور التواضع ، لا يتجاوز القصد فى قول أو عمل يفرضه عليه طبعه فى ذلك ، ويفرضه هو على الذين يجالسهم ويتحدث إليهم كأنما كان يلقى فى نفوسهم وقلوبهم وعلى ألسنتهم فضلاً من وقاره وهدوء نفسه .. فهم يتحدثون مثله فى أناة ، ويضحكون مثله فى قصد ، ويروون من أحاديثه الجد ، وإذا كان حب العلم وطلابه المخلصين هو الخصلة الأولى من الخصال التى لازمته حياته كلها فخصلة الوفاء هى الخصلة الثانية ، والبر بطلاب العلم خاصة وبكل من كان

يحتاج إلى البر عامة كان الخصلة الثالثة فلم أعرف قط قلبًا أبرَّ بفقير ولا نفسًا أرقَّ لذى حاجة ولا يدًا أسرع إلى العطاء من قلب مصطفى ونفسه ويده .. كان سمحًا فى جميع أطواره وكانت الابتسامة الحلوة أدلَّ عليه ، والحديث العذب ألزم شىء إليه وكان يضيف إلى خصاله هذه خصلة أخرى إذا كتب وهى خصلة العناية الدقيقة جدًّا بالتفكير أولا وبالتعبير بعد ذلك ، فلا تجد فيما يكتب معنى نافرًا أو فجًّا ولا تجد لفظا نابيًا .. وإنما كان كلامه يجرى هادئًا مطمئنًا كما يجرى ماء الجدول النقى .. ولست أعرف أحدًا سخط عليه أو ضاق به .. أو شكا منه .. كان راضى النفس يبعث على الرضا فى نفوس الناس حين يرونه وحين يسمعونه وحين يقرأون له » .

هذا هو مصطفى عبد الرازق الذى ولد فى قرية أبو جرج وفى فمه ملعقة من ذهب وفى عقله شعاع من حكمة وفى قلبه وميض من نور وفى نفسه فيض من حب يسع الإنسانية جميعًا . حفظ القرآن فى كتاب القرية مع أقرانه من أولاد الفقراء ، فلما بلغ العاشرة شدَّ الرحال إلى العاصمة لينضم إلى طابور الباحثين عن العلم فى رحاب الأزهر فلما أشرف على التخرج انتابته حالة من القلق والحيرة تساور ذوى الطموح العلمى حين يكتشفون أنهم لم يحصلوا من العلم إلاَّ قشورًا .. وشاء القدر أن يلتقى فى هذه الفترة الحرجة بالرجل الذى كان له فى حياته أبلغ الأثر : « بحر العلوم وإمام العصر محمد عبده ، التقى التلميذ بالأستاذ وتعارفا فتآلفا وآنس التلميذ من جانب

أستاذه نورًا فتح عليه هدى فتوجه تلقاءه يلتمس عنده ما يضيء له الظلمة ، ويدفع عنه الحيرة ، ويأخذ بيده إلى الطريق السوى ، واكتشف الأستاذ فى تلميذه عبقرية واعدة ونفسًا قوية وروحًا وثابة .. فكتب إليه : ما سررت بشيء سرورى بأنك شعرت فى حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك فلله أنت ولله أبوك ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت إليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء ولكنى أكتفى بالإخلاص فى الدعاء أن يمتّعنى الله فى نهايتك بما تفرّسته فى بدايتك » .

واستجاب الله لدعاء الإمام .. وتحققت نبوءته فى تلميذه الذى انكبَّ على منابع العلوم ومصادر الثقافة فى شتى مظانّها يروى منها ظمأه مستهديًا بتعاليم الإسلام التى تشجع المؤمن على الجرى وراء الحكمة .. فأنى وجدها فهو أحقُّ الناس بها . لقد استوعب الشيخ معين الثقافة العربية الأصيلة حتى تكشفت له معالم ذلك البنيان العقلى الضخم الذى أقامه رواد الفكر الإسلامى ، ثم رأى أن هناك ثقافات أخرى ينبغى عليه أن يأخذ بطرف منها حتى تكتمل أمامه صورة العقل الإنسانى فى شموله فأبحر إلى « السوربون » طالبًا وباحثًا ثم مدرسًا وأستاذًا حتى إذا عاد إلى وطنه كانت قد اكتملت فيه شخصية عالم الدين المثقف الذى يجمع بين أصالة القديم وروعة الحديث ، وكانت جامعة القاهرة – وليس الأزهر – هو الميدان الذى صال فيه .. فماذا جرى ؟

إمـــام جيـــل

بعد عودته من فرنسا سنة ١٩١٤ تقلد الشيخ مصطفى عبد الرازق عدة مناصب إدارية فى المجلس الأعلى للأزهر والقضاء الشرعى ، وكانت تلك سنوات الضياع بالنسبة لرجل خلق ليكون أستاذا ومعلمًا يحمل بين جوانحه رسالة الهداية والتنوير ، وليس موظفًا يبدِّد قدراته العقلية فى الجلوس إلى المكاتب ، وينتحر ببطء وسط الأضابير والملفات . وتحمل الشيخ عبء الوظيفة صابرًا حينًا .. ومتأفِّفًا حينًا آخر إلى أن يقضى الله أمرًا .

يصف محمد زكى عبد القادر هذه الفترة القلقة من حياة الشيخ عندما دخل عليه فى مكتبه بوزارة الأوقاف ليبدأ اليوم الأول فى حياته الوظيفية فيقول : « وفى ركن من الغرفة جلس شيخ وسيم ، فى وجهه هدوء رقيق ، وفى عينيه نظرات فيها نبلٌ وأصالة ، وفى صوته رنَّة عذبة .. كان هو الشيخ مصطفى عبد الرازق ، كان واضحًا أنه شىء آخر غير زملائه الشيوخ ، وتأملت وجه الشيخ ، وتمثلت تاريخه العريق وأنا أحييه والرجل يرد التحية فى حياء وذوق وترحيب رقيق .. كان يقرأ فى كتاب باللغة الفرنسية عن المرأة الأوروبية ، قال وهو يرفع رأسه : إنك لا تستطيع أن تدرك أثر المرأة فى المجتمع الأوروبى ، إنك تراها هناك فى كل مكان ، وتحس

بوجودها فى البيت والشارع والمكتب وتشريعات الحكومة .. سأعيرك هذا الكتاب .

● ● ●

كان الشيخ مصطفى عبد الرازق شيئًا مختلفًا عن غيره من الشيوخ .. ولذلك كان من العسير عليه أن يستسلم لقيود الوظيفة ، وجاءه الفرج عندما وقع عليه الاختيار ليعمل أستاذًا للفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٢٧ .. وكأنما شاءت الأقدار أن تعوِّضه عما فات ، وتضعه فى الطريق الصحيح الذى يوافق هواه ويرضى طموحه .

قبل دخول الشيخ إلى الجامعة كان كل أعضاء هيئة التدريس فى قسم الفلسفة من كبار الأساتذة الأجانب ، وكل يدرس بلغة قومه ، ولم يكن فى الكلية سوى أستاذ مصرى واحد هو طه حسين .. والآن أصبح فيها اثنان .. أحدهما يدرس الأدب العربى ، وكان على الثانى أن يدرس لتلاميذه الفلسفة الإسلامية ، ولم تكن هذه المادة ضمن المواد المعترف بها .. ! لأن الفكر الأوروبى كان يرفض أن يعترف بأن هناك شيئًا اسمه الفلسفة الإسلامية ، وكان يرى أن كل التراث العقلى للمسلمين مقتبس ومختلس ومستعار من فكر غيرهم ، لبس ثوبًا إسلاميًّا .. ! فلم يكن الكندى وابن سينا والفارابى وابن رشد – فى نظر هؤلاء الأجانب – سوى ببغاوات تردد أفكار أفلاطون وأرسطو وأفلوطين .. وكان على الشيخ مصطفى عبد الرازق أن يضع الأمر فى نصابه ، ويكشف ما تنطوى عليه هذه المقولات من زيف وحيف

وإجحاف لآباء العقل الإسلامى ، وكان عليه أن يردَّ لهؤلاء الرواد اعتبارهم بنفس المنهج الذى تعلمه فى السوربون .. منهج الاستدلال بالنصوص بعد تطهيرها .

وأثمر هذا المنهج العلمى ثمرته المباركة ، وأظهر للجميع أصالة الفكر الإسلامى وتميزه واستقلاله عن غيره من روافد العلوم الأجنبية .

والمدهش أن الشيخ مصطفى وهو يخوض هذه المعركة الصعبة لم تراود روحه نزعة التعصب أو التجاهل لدور الآخرين ، ولكنه تناول القضية بروح القاضى العدل النزيه ، وأعلن فى ثقة محمودة أنه إذا كان من الصحيح أن اليونان وضعوا اللبنات الأولى فى صرح الفلسفة ، فإن المسلمين أضافوا إليه وأنشأوا وأبدعوا .. وكانت عظمة مصطفى عبد الرازق تتمثل فى هذه النزعة الموضوعية التى تعطى لكل ذى حق حقه .. وانطلقت صيحته فى رحاب الجامعة فى هذه العبارة الموجزة التى تحمل رائحة محمد عبده : كل ما نرجوه لهذه الأمة ألاَّ يسوء ظنها بالحديث ، وألاَّ تحتقر القديم .. فإن مجدها المأمول يقوم على الأخذ بالحديث واحترام القديم .

واستطاع الشيخ أن يبثَّ فى تلاميذه روح الإنصاف والموضوعية وحرية البحث .. ونشأ من كل ذلك جيل من الأساتذة تفخر بهم الجامعات العربية الآن .. فقد كان مصطفى عبد الرازق رئيس مدرسة وإمام جيل .

محنة البويطى

رغم أن فتنة خلق القرآن تفجرت فى العراق ، إلاَّ أن شظاياها امتدت إلى مصر ، وأصابت بعض علمائها ومنهم الإمام البويطى الذى سيق فى الحديد إلى بغداد ليُمتحن فى دينه أمام الخليفة الواثق ، ولكن البويطى ثبت على مبدئه ورفض الإذعان لرغبات السلطة الحكومية ، وبقى رهن السجن حتى مات وهو فى الأغلال سنة ٢٣٢ هـ .

ولد يوسف بن يحيى فى أواسط القرن الهجرى الأول فى إحدى قرى صعيد مصر تسمى « بويط » فانتسب إليها .. ولما بلغ مرحلة الشباب رحل إلى الفسطاط (مصر القديمة) ليتلقى العلم فى مسجد عمرو بن العاص . فلما استقر الإمام الشافعى بمصر عام ١٩٩هـ كان البويطى واحدًا من أبرز تلاميذ الحلقة التى أحاطت بالشافعى ، وتأثرت به ، وأخذت عنه ، وتوسم الإمام في تلميذه نجابة مبكرة وقدرة على الفقه حتى إن الشافعى أوصى بأن يخلفه البويطى فى مجلس الفقه بمسجد عمرو ، وقال لتلاميذه الذين اختلفوا على وراثة الموقع الجليل : ليس أحد أحق بمجلسى من يوسف بن يحيى .. وليس أحدٌ من أصحابى أعلمَ منه .

ويبدو أن الإمام الشافعى تلمس فى تلميذه شجاعة فى الرأى ،

وثباتًا على المبدأ ، وصلابة فى الحق ، وهى صفات تجرُّ على صاحبها وبالاً وتضعه بين يَدَىْ عذاب شديد ، مما جعل الإمام يقول لأصحابه وهو يشير إلى البويطى : تَرَوْنَ هذا لن يموتَ إلاَّ فى حديده !! وصدقت نبوءة الشافعى بعد وفاته باثنتى عشرة سنة حين ثارت فى بغداد فتنة خلق القرآن واكتوى بنارها العديد من الفقهاء بزعامة الإمام أحمد بن حنبل خلال عهدى الخليفتين : المأمون والمعتصم . فلما كان عهد الواثق اتسعت رقعتها إلى الأمصار ، وبعث الواثق إلى الولاة ليمتحنوا العلماء ، ومن يمتنع منهم عن القول بخلق القرآن يساق فى الحديد إلى بغداد لتجرى محاكمته فى حضرة الخليفة .

فلما جاء الدور على الإمام البويطى تأسَّى بأحمد بن حنبل فى صلابته ، ورفض الإذعان لأوامر الحكومة ، فأُلْقِىَ القبض عليه ، وأرْسِلَ مغلولاً إلى بغداد . يقول رفيق عمره الربيع بن سليمان المرادى : رأيت البويطى على بغل فى عنقه غلٌّ ، وفى رجليه قيد ، وبين الغل والقيد سلسلة من حديد فيه حجر وزنه أربعون رطلاً ، وهو يقول : إنما خلق الله سبحانه وتعالى الخلق بـ «كن» ، فإذا كان «كن» مخلوقة فكان مخلوقا خلق مخلوقا .. فو الله لأموتن فى حديدى حتى يأتى من بعدى قوم يعلمون أنه مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم .. ولئن أُدْخِلْتُ عليه (يعنى الواثق) لأَصْدُقَنَّه .

وفشلت محاولات الحكومة المركزية فى إقناع البويطى بالتخلى عن موقفة الصلب . وبقى الرجل فى غياهب السجن .. غريبًا عن

وطنه .. بعيدًا عن أهله وتلاميذه .. غير عابيء بعذاب السجن وشقائه فى سبيل الحفاظ على عقيدته من أن تنال منها القوة الباطشة .. وكان فى محبسه يتذكر حلقات الدرس فى مسجد الفسطاط .. وتهفو روحه إلى البائسين والضائعين فى بيداء الحياة .. فيكتب إلى صديقه الربيع : إنه لياتى على وقت لا أُحِسُّ بالحديد أنه على بدنى حتى تمسَّه يداى ، فإذا قرأت كتابى هذا فأحسن خلقك مع أهل حلقتك ، واستوصِ بالغرباء خيرًا ، فكثيرًا ما كنت أسمع الشافعى (رضى الله عنه) يتمثل بهذا البيت :

أهينُ لهم نفسى لأُكرمهم بها
ولن تكرمَ النفسُ التى لا تُهينُها

كان البويطى صنفًا من العلماء يخفض للضعفاء جناح الذل .. ويرفع الهامات فى وجه الجبارين والطغاة .

الـــــــــــرازى

إذا ذكر اسم «الرازى» قفزت إلى الذهن أسماء ثلاثة من أساطين الحضارة الإسلامية ، وكلهم ينتسب إلى « الرى » ؛ تلك المدينة الفارسية العريقة التى قدمت للحضارة والثقافة أعظم سدنتها ، وكانت تقع بالقرب من طهران الحالية .

أما أولهم:فهو العالم الطبيب الفيلسوف أبو بكر بن محمد بن زكريا الرازى ، أعظم طبيب فى الإسلام وفى العصور الوسطى فى الشرق والغرب معًا ، وثانيهم:معاصره أبو حاتم الرازى أحد فلاسفة المذهب الإسماعيلى الباطنى ، وقد جنح إلى السياسة العملية والنظرية لخدمة مذهبه ، ولعب دورًا عظيمًا فى شئون أذربيجان وطبرستان حتى استجاب له جماعة من كبار رجال الدولة ، وقامت بينه وبين أبى بكر مناظرات فلسفية شهدتها مجالس الحكام وحفظتها كتب المذاهب الاعتقادية ، وتبادل كل منهما الردَّ على الآخر عن طريق الكتب ، وثالثهم:الإمام الجليل شيخ الإسلام فخر الدين الرازى الذى كان اسمًا على مسمى ، وكان بحق فخرًا للإسلام بما صنَّف من كتب علوم الدين والفقه والفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، وعلى رأسها جميعا تفسيره للقرآن الكريم الذى يحمل اسم (مفاتيح الغيب) ونهج فيه منهجًا فريدًا ؛ إذ جمع فيه

بين المباحث الكلامية والفلسفية والدينية ، ورد فيه على تأويلات المعتزلة للقرآن ، وضمنه محاولته التوفيق بين الفلسفة والدين .

وبين الرازى الطبيب والرازى المفسر ثلاثة قرون ، فقد عاش أولهما فيما بين سنتى ٢٥٠ ، ٣٢٠ هـ ، وعاش الثانى فيما بين ٥٤٣ و ٦٠٤ هـ . والفرق بينهما هو الفرق بين القرن الثالث الذى شهد ازدهار المباحث الفلسفية إلى حد الشطط والشطح والغلو ، والقرن السادس الذى شهد تراجع الفلسفة بعد أن شنَّ عليها الإمام أبو حامد الغزالى حربًا مقدَّسة فى كتابه الشهير «تهافت الفلاسفة» ، كما اختلفت الأرض التى انطلق منها كل منهما إلى آفاق المعرفة .

فأبو بكر الرازى بدأ حياته مرحًا طروبًا مولعًا بالغناء وضرب العود ، فلما بلغ مبلغ الشباب ، وظهرت فى وجهه لحية استحى أن يواصل مشوار الفن ، فاعتزل الطرب وقال : كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستظرف ، فخسرته مجالس الطرب وحانات اللهو وكسبته مجامع العلم والطب والكيمياء حتى أصبح أشهر طبيب فى العالم الإسلامى ، وأكبر عالم أنجبته الحضارة العربية ، فلم يترك فنًّا من فنون الطب إلاَّ عكف عليه ، ووضع له القواعد ، ولو حاولنا ذكر الكتب التى صنفها الرازى فسوف يضيق بنا المقام ، لأنه ألف فى كل أنواع المرض والعلاج والصيدلة وعلم النفس وطب العيون ، فضلا عن مؤلفاته فى المنطق والهندسة والكيمياء ، والطبيعة والموسيقى والجغرافيا والإلٓهيات ، وفيما وراء الطبيعة ، وترك للعالم تراثا علميًّا عريضًا ، وظل كتابه (الحاوى) عمدة صناعة

الطب فى العالم كله ، والمرجع الوحيد الذى يدرس فى جامعات أوروبا طوال العصور الوسطى وحتى نهاية القرن السابع عشر الميلادى ، أى منذ ثلاثة قرون فقط ، وقد ترجمه إلى اللاتينية بصقلية الطبيب اليهودى فرج بن سالم سنة ١٢٧٩ م فى ثلاثين مجلدًا حتى يتسنى للجامعات الأوروبية الإفادة منه .

وكان الرازى أول من ابتكر خيوط الجراحة ، وصنع مراهم الزئبق ، وصنف كتبًا فى التشريح والتشخيص وفى الأدوية والأغذية وفى حفظ الصحة وفى جبر العظام ومداواة الجروح والقروح وفى السموم وفى الحميات والجدرى والحصبة ، وله كتاب فى (طب الفقراء) ويحتوى على نصائح وإرشادات لمن يعجز عن استدعاء الطبيب .

ابـــن المقفـــع

لا تزال نوادر «كليلة ودمنة» تجذب اهتمام القراء فى جميع أنحاء العالم ، ويعود ذلك إلى شغف الإنسان بالرمز ، والتلميح الذى قد يكون أقوى من التصريح .. فالنوادر تروى على ألسنة الطير والحيوان من المواعظ والحكم والمواقف ما يعجز الإنسان عن البوح به إذا رأى فى التصريح خطرًا على حياته .. فضلاً عن الأجواء الشرقية التى تدور فيها حكايات كليلة ودمنة وتعجب القراء فى الغرب بالذات .

ولا تذكر كليلة ودمنة إلاّ ويذكر معها عبد الله بن المقفع .. الأديب العظيم ، الفارسى النشأة ، العربى الثقافة ، وصاحب العقل الجبار الذى استوعب ثقافات الفرس والعرب والهند واليونان ، وأُوتى من قوة الأداء وبلاغة التعبير ما جعله فى مكان الصدارة من أدباء عصره حتى شهد له الجميع بالفصاحة ، وضربوا المثل ببلاغته ، وليس أدل على ذلك من أنه ترجم حكايات كليلة ودمنة من اللغة الفهلوية (الفارسية القديمة) إلى العربية ، ولكنه أضفى عليها من علمه وحكمته وبلاغته الفطرية ما أكسبها طابعًا عربيًا صرفا ، وكساها روحًا دينيًّا استمدَّه من أدب القرآن الكريم .

جاء فى الأغانى أن ابن المقفع التقى بفريد عصره الخليل بن

أحمد ، ثم سئل كل منهما عن الآخر ، فقال الخليل عن ابن المقفع : علمه أكثر من عقله ، وقال ابن المقفع عن الخليل : عقله أكثر من علمه .. ويعقب ابن خلكان على هذه القصة بقوله : أدى الخليل عقله إلى أن مات زاهدًا .. وابن المقفع إلى أن مات قتيلاً بسبب كتاب كتبه .. وقال أبو العيناء عن ابن المقفع : كلامه صريح ، ولسانه فصيح ، وطبعه صحيح ، كأن بيانه لؤلؤ منثور ، وروض ممطور ، ونقل السيوطى عن محمد بن سلام : سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل ولا أجمع .. ولاكان فى العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع . وقال الأصمعى : قرأت آداب ابن المقفع فلم أر فيها لحنًا (خطأ) إلاَّ فى موضع واحد وهو قوله «العلم أكبر من أن يحاط بكله ، فخذوا البعض .. » ، وكان الصواب أن يقول : فخذوا «بعضه» بغير «ال» .

أرأيت إلى هذه الدقة فى الحساب على الخطأ البلاغى ولو كان هينا .. وهو حساب يدلُّ على السمت الرفيع الذى بلغته العربية فى عصرها الذهبى ، وإلى جانب المكانة العالية التى بلغها ابن المقفع فى مجال الأدب والعلم والبلاغة ، فقد بلغ نفس المستوى فى الخلق والسلوك ، كان «الأدب» عنده حرفة وسلوكا .. وتعبيرًا ومنهاجًا .. وكان الناس يعجبون بأدبه فيسألونه : مَنْ أَدَّبَكَ ؟ فيقول : أَدَّبْتُ نفسى .. إذا رأيت من غيرى حسنًا أتيته .. وإن رأيت قبيحًا أبيته .. ووصفه الجاحظ بقوله : كان جوادًا فارسًا جميلاً .. دعاه الخليفة

على الغداء . فقال : أَعَزَّ الله الأميرَ .. لست اليوم للكرام أكيلا .. فلما استوضحه السبب ، قال : لأنى مزكومٌ .. والزُّكْمة قبيحة الجوار .. مانعة عشرة الأحرار ..

ومن شواهد نبله وفروسيته تلك القصة التى تروى عنه وصديقه الأديب الكبير عبد الحميد الكاتب ، وكانا صديقين حميمين يؤثر كل منهما الآخر ، ويفضله على نفسه ويفتديه بروحه ، وجاءت الفاجعة لتضع كليهما موضع الاختبار الصعب ، فقد دهم الجند مجلس عبد الحميد للقبض عليه وعنده إذ ذاك صديقه ابن المقفع . فقالوا لهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل منهما فى نفس واحد : (أنا) خوفا على صاحبه من المصير المفجع الذى ينتظره .. وخشى عبد الحميد أن يقبضوا عل صديقه ، فقال للجند : تريَّثوا .. وذكر لهم علامات تؤكد أنه هو المطلوب .. فحملوه إلى الشَّنْقِ .. وتركوا صديقه يبكيه بدمع سخين .. وما هى إلاَّ سنوات حتى كان ابن المقفع يلقى نفس المصير فى مأساة من أفظع مآسى التاريخ .

الجاحـــــــــظ

يؤلمنى أن تكون صورة الجاحظ فى أذهان المعاصرين مقترنة بالهزل والخفة ، وكأنه أحد الندماء الذين كانوا يجالسون الخلفاء ويسلونهم برواية النوادر والطرائف والملح ، وفى ظنى أن السبب فى ترويج هذه الصورة المغلوطة يرجع إلى مؤلفى البرامج الإذاعية ؛ فهم لا يأخذون من الجاحظ إلا مصنفاته عن البخلاء والحمقى والطفيليين وغرائب الحيوان ، فدخل فى روع الأجيال المعاصرة أن الجاحظ ماهو إلاَّ جامع للنكت والنوادر والفوازير (!!) .

هذه الصورة الظالمة تسيء إلى أكبر عقل أفرزته الحضارة الإسلامية وهى فى ذروة ازدهارها ، بل أكبر مثقف فى العالم فى زمانه ، وما ظنك برجلٍ جاس خلال العلوم النقلية والطبيعية فكان له القدح المعلَّى فى كلٍّ منها ، وكان فارس الحلبة فى كل فرع من فروعها ، وإذا كانت شهرة الجاحظ قد انحصرت فى مجال الأدب والنثر والبلاغة ، إلاَّ أن براعته فى مجال العلوم الطبيعية لم تكن أقل منها فى بقية العلوم ، وقد لا يعلم الكثيرون أن الجاحظ كان عالما فى الطبيعة والكيمياء ، وكان بيته يحتوى مختبرًا (معملا) يطبق فيه المنهج التجريبى فى استخلاص النتائج ، وظل يمارس تجاربه المعملية حتى تمكَّن من استخراج روح النشادر وملح

النشادر عن طريق التقطير الجاف ، أى بتسخين الأجسام الصلبة فى بوتقة مفرغة من الهواء فتتفكك أجزاء المادة .

لقد عاش الجاحظ فى عصر المأمون وخلفائه .. عصر التألق الثقافى والنضج الفلسفى والترف العقلى والعصر الذى أُنشِئَت فيه دارُ الحكمة لتكون جامعة تتفاعل فيها التيارات الفكرية ، فجاء الجاحظ نتاجًا خصبًا لهذا المناخ الثرى ، كان الرجل فى شبابه يطوف بدكاكين الوراقين - مكتبات ذلك الزمان - فيستأجرها من بابها ، ويحبس نفسه فيها ولا يتركها حتى يأتى على محتوياتها فاكتسب ثقافة موسوعية عريضة ، وحباه الله عقلاً جبارًا قادرًا على الحفظ والتحليل والاستنباط واجتذبته الثورة العقلية الكلامية التى أشعلها المعتزلة فأصبح واحدًا من أعمدة الفكر الاعتزالى ورئيسا لإحدى فرق المعتزلة نسبت إليه (الجاحظية) ، حتى قال ابن قتيبة : إنه آخر المتكلمين وأحسنهم للحجة حتى إنه ليعظم الصغير ، ويصغِّر العظيم ، وقال عنه الشهرستانى - فى الملل والنحل - : إنه طالع كثيرًا من كتب الفلسفة وخلط وروّج بعباراته البليغة وبراعته اللطيفة ، وكان أكثر ميله إلى الفلاسفة الطبيعيين فجاءت أقواله مطبوعة بفلسفتهم .

لقد ناقش الجاحظ كل القضايا الكلامية التى كانت مطروحة فى عصره ، فتكلم فى الجوهر الذى يستحيل أن ينعدم أو يفنى ، وتكلم فى صفات البارى جلَّ وعلا ، فقال : إن الله ليس بجسم ولا صورة ، ولا يُرى بالأبصار ، وهو عدل لا يجور.

ولا يعرف قدر الجاحظ سوى العلماء ، فيقول عنه زكى نجيب محمود : إننى أضع الجاحظ من فكر عصره حيث يوضع عمالقة الفكر جميعًا بالنسبة إلى عصورهم الفكرية ويقفون فى ميدان عصرهم الثقافى وقفة «المحور» تدور حوله الأفلاك ؛ فالجاحظ يمثل نقطة التحول فى الثقافة العربية كلها : من ثقافة محورها الشعر إلى ثقافة محورها النثر ، وتحول من نظرة وجدانية إلى أخرى عقلية ، كانت الثقافة العربية – قبله – تخاطب الأذن بالجرس والنغم فأصبحت – بعده – تخاطب العقل بالفكرة . إنه انتقال من البداوة وبساطة استرسالها إلى حياة المدينة وما يكتنفها من وعى العقل ويقظته فيلتفت إلى الدقائق واللطائف التى تميز الأشياء والأفكار بعضها مع بعض .

رائد الطيران

كلما حلقت بى الطائرة فى عنان السماء .. تذكرت أولئك الرواد العظام الذين ضاقت الأرض عن طموحهم .. فتاقت عقولهم إلى اجتياز الأجواء العليا ينافسون الطير وهى تحلق بأجنحتها فى الفضاء العريض . وعلى رأس هؤلاء الرواد – عباس بن فرناس – أول إنسان فكر فى تقليد الطيور ، وأول من قام بتجربة بشرية عملية للتحليق فى الفضاء .. فدفع حياته ثمنا لهذا الطموح ، وشق الطريق لمن جاء بعده ليستفيد من أخطائه ويستكمل المشوار .

هو أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس التاكرنى الأموى ، المتوفَّى بالأندلس عام ٨٨٧ ميلادية عن عمر يناهز الثمانين أنفقه فى تحصيل العلوم .. واكتشاف المجهول ، ولا عجب فى ذلك ، فقد عاش فى قرطبة وهى إذ ذاك كعبة العلم والفن والأدب ، ومنها خرجت إشعاعات الثقافة لتغمر أوروبا فى القرن التاسع الميلادى .. وقد أفاد ابن فرناس من أبحاث أسلافه العلماء العرب فى علوم الطبيعة ، وخاصة حساب الوزن النوعى ، وسلخ فى أبحاثه شوطا كبيرًا شجعه على التفكير فى الطيران بجسمه فى الفضاء كما تفعل الطيور ، وانكبَّ على دراسة ثقل الأجسام ومقاومة الهواء لها ، وتأثير ضغط الهواء عليها بعد تحليقها فى الجو ، وصنع فى بيته

قبة تمثل السماء بشمسها وقمرها ونجومها ومداراتها وما يحدث فيها من غيوم ورعد وبرق واخترع الآلة الفلكية المسماة «ذات الحلق» .

وأقدم العالم الأندلسى على تجربته المثيرة بأن كسا جسمه برش اتخذه من شقف الحرير الأبيض لمتانته وتناسبه مع ثقل جسمه ، وصنع له جناحين من نفس الحرير يحملان جسمه إذا ما حركهما فى الهواء ، وأعلن للناس أنه سيطير فى الجو من الرصافة – ضاحية قرطبة – واحتشد الناس ليشهدوا العالم الجرىء وهو يصعد درجات برج مرتفع .. ثم ينطلق إلى الفضاء وهو يحرك جناحيه .. ومضى عباس بن فرناس محلقا فى الجو لمسافة بعيدة ، والناس يتابعونه مشدوهين وهم لا يصدقون عيونهم .. حتى إذا هم بالهبوط سقط على الأرض متوجِّعًا .. ولم يلبث أن فاضت روحه إلى بارئها .

وكان الخطأ الذى وقع فيه رائد الطيران الأول أنه لم يصنع لنفسه ذيلا .. وفاته أن يلاحظ أن الطائر إنما يعتمد على ذيله فى مقاومة الهواء عند هبوطه إلى الأرض . وظن أن الطيران يعتمد على الجناحين وحدهما . فدفع حياته ثمنا لهذا السهو .. ولكن المهم أن تجربة عباس بن فرناس لم تضع هباء .. فقد تردد صداها فى أنحاء العالم الإسلامى ، وشجعت روادًا آخرين على الاقتداء به .. وبعد قرن واحد ظهر رائد آخر للفضاء هو إسماعيل بن حماد الجوهرى الذى ولد وعاش بالتركستان وتلقى العلوم فى نيسابور وبغداد ، وكان موسوعى المعرفة مثل خاله الفيلسوف الكبير أبى

نصر الفارابى ، فتبحر فى علوم اللغة والأدب والكلام والأصول ، حتى وصفه النقاد بأنه (أنحى اللغويين) . وقامت تجربته فى الطيران على أساس جديد ، فقد ربط بذراعيه مصراعى باب .. وصعد إلى سطح بيته .. وبدأ فى التحليق .. ولكنه خرّ صريعا !!

● ● ●

وأثمرت بذور المعرفة التى ألقاها علماء الحضارة الإسلامية طوال العصور الوسطى ، وصدقت عليهم مقولة جون دريبر فى القرن الماضى : عمل المسلمون – فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا لا تفوق فى المعرفة إلاَّ قليلا مما تعرفه الدول المتخلفة الآن – على تهذيب العلوم وترقيتها ، بل إنهم كانوا يبتكرون الجديد منها . إن انتصاراتهم فى الفلسفة والرياضيات والفلك والطب والكيمياء ، أثبتت أنها أبقى وأعظم من انتصاراتهم الحربية .

شكيب أرسلان

كان الأمير شكيب أرسلان من أعلام النهضة الإسلامية الحديثة التى غرس بذورها جمال الدين الأفغانى ، وأثمرت العديد من قادة التنوير أمثال محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين ورشيد رضا وشكيب أرسلان الذى ولد فى عام ١٨٦٩ ، وتوفى فى عام ١٩٤٦ ، أى أنه شهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، وهى فترة حافلة بالأحداث الجسام ، كان أخطرها وقوع الشرق الإسلامى فى براثن الاستعمار الأوروبى ، وانحلال دولة الخلافة العثمانية ، وظهور حركات الاستقلال الوطنى العربى فى نفس الوقت الذى لاحت فيه بوادر الخطر الصهيونى فى فلسطين . ثم اندلاع حربين عالميتين كان لهما أثرهما المباشر على الشعوب العربية والإسلامية .

وقد عايش الأمير شكيب هذه الأحداث معايشة عملية وفكرية ، فلا يتعرض العرب لمحنة حتى يكون شكيب على رأس الداعين إلى الجهاد بالنفس والمال والقلم .. ويندر أن يقع حادث جلل فى أى بقعة من بقاع العالم الإسلامى إلاّ وكان شكيب صاحب الصوت المدوِّى يوقظ الهمم ويشحذ العقول ويستنهض القوى من أجل رفعة العروبة والإسلام .

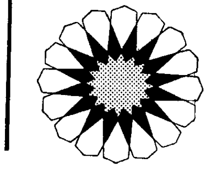
وينتسب الأمير شكيب إلى بيت من أعرق البيوت العربية فى لبنان ، وهو بيت أرسلان الذى يتصل بنسب إلى الأمير عون الذى كان على رأس أحد الفيالق التى شاركت خالد بن الوليد فى فتح الشام . والمعروف عن أسرة أرسلان أنهم من الدروز ، ومن الطبيعى أن ينشأ شكيب درزيًّا . ولكن الدكتور أحمد الشرباصى يكشف لنا – فى كتابه الذى ألفه عن الأمير شكيب – أنه كان درزيًّا من الناحية الشكلية فقط .. وكان سنى المعتقد .. يتعبَّد على مذهب أهل السنة ويصلى ويصوم ويزكى ويحج على نهج جمهور المسلمين ، أما دفاعه عن الدروز فكان لدوافع سياسية وبقصد تجميع الكلمة وعدم التفرقة بين طوائف الأمة .

والظاهر أن الثقافة العميقة التى كانت للأمير شكيب ، واتساع أفقه ورحابة شخصيته وعلو همته .. كل ذلك جعله يتخطى الحواجز الطائفية والمذهبية الضيقة ، ويعتبر نفسه شخصية عامة ترفض الصراعات والانقسامات التى أدَّت إلى تفكُّك المسلمين .. وانهيار وحدتهم .

وقد تأثر شكيب أرسلان تأثرًا بالغًا بشخصية الإمام محمد عبده الذى تعرف عليه منذ مرحلة الصبا أثناء تلقيه العلم فى إحدى المدارس المارونية فى بيروت ، فى الوقت الذى لجأ فيه الإمام إلى لبنان إثر فشل الثورة العرابية ووقوع الاحتلال البريطانى ، وقد توسم الإمام فى الصبى نجابة مبشرة ، وتوقع له مستقبلاً باهرًا .. فلما زار شكيب مصر لأول مرة سنة ١٨٩٠ توثقت صلته بالإمام ولازمه

ملازمة المريد للشيخ ، وفى نفس الوقت اتخذ شكيب سبيله إلى الصحف المصرية ومواقع التأثير فى المجتمع المصرى ، ومن يومها أصبح قلمه قاسمًا مشتركا فى معظم الصحف والمجلات ، لا يخلو منبر ثقافى من صوته القوى ، ودخل فى نسيج الحياة المصرية معبرًا عن النهضة الإسلامية الجديدة التى نادى بها الأفغانى ، وحمل لواءها من بعده محمد عبده .





أحـــداث

شاعـــر البـــلاط

في أواخر عهد الدولة الفاطمية في مصر ، دالت سلطة الخلفاء ، واستبدَّ بالأمر الوزير شاور بن مجير السعدى الذى لقب نفسه بأمير الجيوش ، ولكن سرعان ما برز له منافس سلب منه السلطة هو ضرغام بن سوار ، ففر شاور إلى دمشق مستنجدًا بأميرها نور الدين محمود ، ووجدها نور الدين فرصة ليربط ما بين دمشق والقاهرة بحزام يحيط بالصليبيين المستقرين فى القدس ، فبعث مع شاور بحملة عسكرية يقودها أسد الدين شيركوه الضابط الكردى ، ومن رجالها ابن أخيه البطل الشاب صلاح الدين الأيوبى . وتمكنت الحملة من الإطاحة بضرغام ، وأعادت شاور إلى منصبه ، ولكنه كان رجلاً متقلبًا غادرًا .. فتهرب من تنفيذ العهود التى قطعها لنور الدين ، ولم يخجل من أن يستنجد بالصليبيين لينصروه على أسد الدين .

وكان شاعر البلاط عُمارة اليمنى قد أفاض فى مدح شاور قبل

نزاعه مع ضرغام ، وخلع عليه من أوصاف الشجاعة والإقدام الشيء الكثير . فقال فيه :

ضَجِر الحديدُ من الحديد وشاور
في نصر آل محمد لم يَضْجَر
حلف الزمانُ ليأتين بمثله
حنثت يمينك يازمان فكفرِ

ولكن حين انتصر ضرغام على شاور ، حنث عمارة الشاعر بيمينه وانطلق يقول في ضرغام :

وأحق من وزرَ الخلافة من
نشا في حضرة الإكرام والإجلالِ
واختصَّ بالخلفاء وانكشفت له
أسرارها بقرائن الأحوالِ
وتصرف الوزراء عن أرائه
كتصرُّفِ الأسماءِ بالأفعالِ

ثم ما لبث ضرغام أن لقى مصرعه ، وفتح عمارة نافذة بيته المطل على الخليج فرأى الناس يطوفون في الشوارع وهم يحملون رأس ضرغام فهاله المشهد فأنشد :

أرى حنك الوزارة صار سيفا
يحدُّ بِحَدِّه صيدَ الرقاب
كأنك رائدُ البلوى وإلا
بشيرٌ بالمنيَّة والمصاب

وعاد شاور إلى السلطة بعد تسعة شهور من إبعاده ، ولم يجد الشاعر عمارة حرجا من أن يعود إلى مدحه ، مشيرًا إلى فترة الشهور التسعة التى هى مدة الحمل والتى كانت نهايتها شهر جمادى .. فقال مخاطبا شاور :

ونزعت ملكك من رجال نازعوا
فيه وكنت به أحقَّ وأقعدا
جذبوا رداءك غاضبين فلم تزل
حتى كسوت القومَ أردية الرّدى
تاريخ هذا قلته فى مثله
يومًا بيوم ، عبرة لمن اهتدى
حملت به الأيامُ تسعة أشهر
حتى جعلن له جمادى مولدا

وبعد أن استتب أمر مصر للوزير الشاب صلاح الدين الأيوبى الذى قتل شاور ، حاول الشاعر عمارة أن يدبر مؤامرة لإعادة النفوذ الفاطمى ، ولكنَّ صلاح الدين أطاح به ، وأراح الناس من نفاقه .. وقد صدق فيه قول الله عز وجل : «والشُّعَرَاءُ يتَّبِعُهُم الغاوون . ألم تَرَ أنهم فى كلِّ وادٍ يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون» .

وصمة عار

قد تعجب إذا علمت أن بيت الشعر الذى قاله الحطيئة ، ووصفه الرواة بأنه أعظم بيت قالته العرب لخلوه من المطاعن ، جاء ضمن قصيدة نظمها الحطيئة طعنًا فى أحد أشراف العرب ، هو الزبرقان ابن بدر ، وقد تدهش إذا اكتشفت أن قذائف الحطيئة لم تكن تتعلق بالأعراض ولا ذكر الآباء والأمهات ، ولا تتناول قذفا فى أخلاق الرجل .. قال له فقط :

دع المكارِمِ لا ترحلْ لبغيتها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

ومعناها أن يقعد عن طلب المعالى ، ولا يكلف نفسه تحصيل المكارم التى تشرف بها النفوس الكبار .. لأن كل اهتماماته تدور حول العيش الرغيد .. والطعام اللين .. واللباس الناعم !! ولكن الناس فى الصدر الأول للإسلام كانوا يرون فى هذه الصفات مطعنا ومسبة .. وما إن سمع الزبرقان القصيدة حتى ثارت نفسه وشدَّ الرحال إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وألقى على مسامعه ما أنشده الحطيئة فى حقه .. ولم يشأ عمر أن يصدر حكمًا متعجلاً .. وآثر أن يسترشد برأى أهل الذكر .. فاستشار الشاعر الكبير حسان ابن ثابت .. وأدلى حسان برأيه وهو أن الأمر أفحش من الهجاء ..

وأن أقذع الهجاء لأهون من هذا .. وأن الحطيئة صبَّ على الزبرقان دنسًا لاتقوم به كرامة .

يستنتج الداعية الإسلامى الكبير الأستاذ البهى الخولى من هذه القصة معنيين بارزين :

الأول : أن الحطيئة كان خبيرًا بالحياة ، وأنها ذات وجهين أو غايتين ، غاية خسيسة يعيش عليها الأدنياء ، وغاية شريفة يحياها الفضلاء ، فالأولون يرون سعادتهم فى لذة المطعم والملبس وكفى ، والآخرون يجدّون لتحصيل زادهم من الفضيلة ، ومتاع نفوسهم من الخير والحق ، وهذا هو ما كانت تقوم عليه الحياة فعلا فى ذلك العهد العمرى الزاهر .

أما المعنى الثانى : فهو أن شعور الرأى العام كان شديد الحساسية بالفارق العظيم بين الغايتين ، فكان أحدهم يسمو بهمته أن تنضمر فى مطالب المعدة ، وترف البدن ، ويفزع أن يوصم بين الناس بهذه الوصمة القاصمة ، وإلى مكان هذا الفزع سدد الحطيئة ضربته القاسية إلى غريمه ، أو صبَّ عليه دنسًا لاتقوم به الكرامة ، على معنى ما قال حسان بن ثابت (رضى الله عنه) .

وعندما استأنس عمر (رضى الله عنه) برأى حسان همَّ بأن يأمر بقطع لسان الحطيئة ليستريح الناس من بذاءاته ، ولكن عمر ترفق به وأراد أن يمنحه فرصة أخرى ، فأمر بنفيه إلى البادية بعيدًا عن أولاده وكانوا يعيشون فى مكان يقال له (ذو مرخ) .. ومكث

الحطيئة فى منفاه ثلاث سنين ، ولم يكفَّ عن استعطاف الخليفة كى يرده إلى أولاده :

ماذا تقول لأطفالٍ بذى مرخٍ
زغبِ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شجرُ
ألقيت كاسبهم فى قَعْرِ مظلمةٍ
فاغفر عليك سلامُ الله ياعمـرُ

ورقَّ قلبُ الخليفة للصغار الجوعى .. فاستدعى الحطيئة من منفاه .. وأخذ عليه عهدًا بأن يكفَّ عن هجاء الناس .. ودفع إليه بثلاثة آلاف درهم ليستغنى بها عن سبِّ أعراض المسلمين .. فقد كان الحطيئة من الشعراء الذين يمدحون إذا أعطوا .. ويسبُّون من يمتنع عن الدفع .

كافـــــــــــور

كان الشعر فى العصور الغابرة يقوم مقام الصحافة والإعلام فى العصر الحاضر ، يرفع من شأن هذا .. ويحطُّ من شأن ذاك .. ولم يكن الأمر فى الحالين يخلو من تحيز وهوى .. وكان الحاكم الشاطر هو الذى يبسط يده ويفتح خزائنه لأكابر الشعراء فينسجون له قصائد المديح .. وينسبون إليه من صفات العظمة ماليس فيه .. والويل للحاكم البخيل الذى يأبى الإغداق على الشعراء فينهالون عليه سبًّا وتقريعا .. وتنتشر أشعار القادحين والمادحين فى الآفاق ، ويحفظها الناس عن ظهر قلب معجبين بأساليبها البلاغية ، متغافلين عما تنطوى عليه من مغالطات وأكاذيب .. وكم من حاكم خامل ارتفعت قامته على أكتاف شاعر مأجور .. وكم من حاكم عامل خمل ذكره بسبب مطاعن وجهها إليه شاعر حاقد .

والمؤسف أن هذه القصائد باتت جزءًا من مصادر التاريخ ، فالناس لايذكرون اسم حاكم مصر (كافور) الإخشيدى ، إلا مقرونا بتلك المطاعن المسمومة التى سجلها المتنبى فى قصيدته الدالية المشهورة التى مطلعها :

عيد بأية حال عدت ياعيــدُ

بما مضى أم لأمر فيك تجديدُ

وحشد فيها المتنبى كل ما اختزنه قلبه من حقد وضغينة على كافور ، فهو يعيره بلونه الأسود ، ويذكره بماضيه الوضيع حين كان عبدًا خصيًّا يباع فى سوق النخاسة ، ولم يترك نقيصة إلا رماه بها .. فهو الغادر الذى سلبَ الملك من أسياده أولاد الإخشيد .. وهو الحقير الذى يخلو من كل مكرمة وإليك بعضا منها :

أكلما اغتال عبد السوء سيده
أو خانه فله فى مصر تمهيدُ؟!
صار الخصيُّ إمامَ الآبقين بها
فالحر مستعبدٌ والعبدُ معبودُ
لا تشترِ العبدَ إلا والعصا معه
إن العبيدَ لأنجاس مناكيدُ
من علَّم الأسود المخصيَّ مكرمةً
أقومُه البيضُ أم آباؤه الصيدُ

ولم يكن المتنبى منصفا ولا متجردًا من الحقد وهو يصف كافورًا بهذه الصفات المقذعة ، فالمتنبى مع عظمته الأدبية كان محبًّا للمال والجاه .. راغبا فى السلطة والحكم .. وكان يطمع فى أن يحظى بحكم أحد الأقاليم المصرية ، ولكن كافورًا العليم بنفوس الرجال وأخلاقهم ، كان يعرف دخائل المتنبى وأطماعه الصغيرة فلم يحقق له طلبته .. فكان الانقلاب .. وكان السبُّ والقذف .

والمؤرخون المعاصرون لكافور يؤكدون أنه لم يكن على هذه الصورة الدنيئة التى رسمها له المتنبى ، فيصفه أبو المحاسن بأنه

كان خبيرًا بالسياسة فطنا ذكيًّا جيِّدَ العقل داهية .. ويستشهد على ذلك بأنه كان يهادى المعزَّ لدين الله الفاطمى حاكم المغرب (قبل احتلاله مصر) ، ويُظهر ميله إليه ، وفى نفس الوقت يُظهر الطاعة للخليفة العباسى فى بغداد .. فيدارى هؤلاء ويخدع أولئك .. وتم له الأمر . ويقول عنه المقريزى : إنه كان يداوم الجلوس صباحا ومساء لقضاء حوائج الناس ، وكان يتهجد ويمرغ وجهه ساجدًا ويقول : اللهم لا تسلط علىَّ مخلوقا ، وكان بلاطه قبلة الأدباء والعلماء ، فيقرأون له كتب السير وأخبار الأمم ، وكان له نظر فى الأدب والعلم وفروع اللغة . ولو لم يكن كافور حائزا لهذه الصفات الحميدة لما تيسر له الوصول إلى عرش مصر ، ولكنه الحقد الذى أعمى بصر المتنبى .

صعــــود نجــــم

لاتزال قصة وصول (كافور) الإخشيدى إلى حكم مصر من الألغاز التى تحير المؤرخين المعاصرين مثلما حيرت المؤرخين القدامى .. وهم معذورون فى دهشتهم إذ يجدون على عرش مصر المحروسة «عبدًا أسود بصَّاصًا خصيا قبيح الشكل بطيئا ثقيل البدن قبيح القدمين مثقوب الشفة العليا» ، وقد أثار ذلك إعجاب بعض المؤرخين فقالوا عن كافور : إنه «من أعاجيب الدنيا ، وسيرته من أغرب السير» .. وحفزهم هذا الإعجاب إلى أن ينسجوا حول نشأته الأولى قصصًا تشبه الكليشهات التاريخية التى رواها المؤرخون العرب عن كثيرين من أبطال التاريخ الإسلامى .

وعرضت علينا الدكتورة سيدة إسماعيل الكاشف فى كتابها (مصر فى عهد الإخشيديين) طائفة من أقوال المؤرخين حول مجيئه إلى مصر ، فالراجح عند أبى المحاسن أن كافورًا جُلِبَ إلى مصر مع عبيد آخرين من مواطنيه فبيع لتاجر من تجار الزيت ، وقال ابن خلكان فى وفيات الأعيان إنه بيع لرجل من أصحاب الضياع فى مصر اسمه محمد بن هاشم ، وبيع بعد ذلك لرجل يدعى محمود ابنَ وهب بن عباس الكاتب ، ثم اشتراه منه أمير مصر محمد بن طغج الإخشيد بثمانية عشر دينارًا فربَّاه وأعتقه .

ويقول المقريزى : إن كافورًا بعد جلبه إلى مصر مر على مُنَجِّم رأى له الطالع فقال له : «أنت تصير إلى رجل جليل القدر وتبلغ معه مبلغا عظيما» ، فدفع له كافور درهمين ولم يكن معه سواهما ، فرمى بهما إليه وقال له : أبشرك بهذه البشارة وتعطينى درهمين ! ثم أضاف : وأزيدك .. أنت تملك هذا البلد وأكثر منه .. فاذكرنى . وقيل إن كافورًا بعد أن بلغ مرتبة الملك رأى هذا المنجم فى المنام وهو يقول له : لم نفترق على هذا ! فسأل عنه كافور ، وعرف أنه مات منذ سنين ، وإن له بنتين إحداهما فى سن الزواج فاشترى لهما كافور دارا بأربعمائة دينار ، ودفع للفتاة ٢٠٠ دينار لتجهز بها .

كأنما أراد بعض المؤرخين أن يبينوا إلى أى درجة من البؤس وصل كافور قبل ارتفاعه إلى السلطان ، فذهبوا إلى أنه فى بداية أمره لحقه جربٌ كثير حتى كان لا يظهر ولا يقابل ، فطرده سيده ، فكان يمشى فى السوق ، وحدث أن مرَّ بطباخ فطلب منه بعض الطعام فضربه الطباخ بالمغرفة على يده ، وهى ساخنة فوقع مغشيا عليه ، فأخذه رجلٌ طيِّبُ القلب وداواه حتى شُفِىَ ، فسار به إلى سيده ، وأخذه سيده وعرض على الرجل أجرًا على إيوائه وعلاجه ، فرفض الرجل قائلا : أجرى على الله ، وكان كافور بعد ارتفاعه يذكر هذا الحادث كلما عزَّت عليه نفسه ، وربما سار إلى السوق وسجد لله شكرًا ، وقال لنفسه : اذكر ضرب المغرفة !

وتعزو الدكتورة سيدة الكاشف ارتفاع قدر كافور عند سيده

الإخشيد إلى ما كان يمتاز به كافور من الهمة والذكاء والإخلاص فقربه إليه .. وظلت منزلته عنده ترتفع تدريجيا حتى أصبح موضع ثقته وأقرب المقربين إليه .

وأيًّا كانت الأقاويل فى تبرير صعود كافور إلى الصدارة ، فإن روح الإسلام كانت وراء كل ما حدث .. وهى روح لا تنظر إلى أشكال الناس وصورهم وألوانهم وأصولهم وأعراقهم .. وتنظر فقط إلى أعمالهم .. وتفتح سلم الترقِّى أمام كلِّ من يملك مؤهلات الحكم .

ضَـرِيبـة الـــوَرَع

من بين خلفاء بنى أمية ، يحظى عمر بن عبد العزيز بمكانة خاصة فى نفوس عامة المسلمين ، رغم أن فترة حكمه لم تزد على سنتين .. ولكن العبرة ليست فى عدد السنين ، وإنما فيما أفرزته هذه السنون من أعمال .

فكم من حاكم استطالت مدة حكمه ، ثم مضى دون أن يخلف على الأرض ذكرا .. فانمحت سيرته من ذاكرة التاريخ .. عندك - مثلا - الخليفة الفاطمى (المستنصر) الذى حكم مصر ستين سنة ، أطول فترة حكم فى التاريخ الإسلامى كُلِّه .. ولا أظن أن أحدا سمع به ، أو حفظ له عملا مجيدا .. اللهم إلا فشله فى قمع الفتن والمجاعات والاضطرابات التى انتشرت فى عهده (السعيد) فاستدعى وزيرا أرمنيا اسمه بدر الجمالى ليعيد الأمن والطمأنينة إلى الديار المصرية . (وإليه ينتسب حى الجمالية المعروف بالقاهرة) .

والغريب أن اسم عمر بن عبد العزيز لم يقترن بالفتوحات العظيمة ، كما اقترن اسم عمه عبد الملك بن مروان وابنه الوليد .. حيث وصلت جيوش المسلمين فى عهدهما إلى جنوب فرنسا وتخوم الصين .. لم يكتسب ابن عبد العزيز مكانته المرموقة فى

قلوب المسلمين عن هذا الطريق ، وإنما عن طريق سيرته العطرة ، والتزامه بالعدل والزهد فى متاع الدنيا .

فهو لم يكن يتحدث عن العَدْل .. وإنما يمارسه شِرْعَة وتطبيقا .. ولم يكن يتقن فن الكلام عن الزهد ، وإنما جعله دستورا لحياته الخاصة ، فجاءت سنوات حكمه – على قصرها – نموذجا للحكم الإسلامى فى أبهى صوره ، وحفظ له المسلمون أخلد الذكر ، فرفعوه إلى مصاف الخلفاء الراشدين ، وبقيت سيرته تفوح عطرا على مدى العصور والأجيال .. وصدق الله العظيم : «ومثل كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طيِّبةٍ أصْلُهَا ثَابتٌ وفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ» .

وفى تاريخ الخلفاء العباسيين من يشابه عمر بن عبد العزيز عند الأمويِّين .

وأعنى به الخليفة (المهتدى) الذى شاء له حظه العاثر أن يتولى الخلافة بعد أن كانت موجة الترف والرخاوة قد بلغت ذروتها على عهد الرشيد والمأمون .

وأراد هذا الخليفة الوَرِع أن يعود بالمجتمع العباسى إلى النهج الذى رسمه الرسول ﷺ ، وسار عليه الخلفاء الراشدون ، فاتجه إلى مظاهر الانحلال والفساد التى دَبَّت فى المجتمع يقاومها بكل عنف فأمر بإلغاء مجالس الشراب ، والغناء ، والقيان ، وفتح خزائن الخلفاء ، وأخرج مافيها من أوانى الذهب والفضة ، وأمر بسكها ، وضربها دنانير ودراهم لينتفع بها الناس .. وكان يقضى ليله عابدا مُتبتِّلا .. ونهاره قائما مع رجال الفقه والعلم والأدب .

ولكن لم يكن المجتمع العباسى ليتقبَّل هذه الشدَّة بعد حياة اللهو والخلاعة التى استشرت .. فتآمر عليه أعوانه ، وقبضوا عليه .

ويقول المسعودى فى (مُرُوج الذهب) :

إنهم عندما اتهموه بأنه كان شديد الوطأة عليهم .. تعجَّب منهم ، وقال لهم :

إنما أردت أن أحملكم على سيرة الرسول ﷺ وأهل بيته والخلفاء الراشدين .. فقالوا له :

إن الرسول كان مع قوم قد زهدوا فى الدنيا ورغبوا فى الآخرة .. أما أنت فرجالك من أجناس شتى فكيف تحملهم على ما ذكرت ؟

- ثم قتلوه ...
- وتلك ضريبة يدفعها أى مصلح يظهر فى غير زمانه ...

عَلِىُّ الرِّضَا

كان عَلِىّ الرِّضا ، ثامن الأئمة فى شجرة الشيعة الإثنى عشرية ، من خيرة الهاشميين ، وأشرفهم وأكثرهم عزوفا عن مطامع السياسة والحكم ، متأسِّيا فى ذلك بجده العظيم الإمام جعفر الصادق الذى تفرَّغ لعلوم الدين حتى أنجز علم الفقه المسمى باسمه (الجعفَرِىّ) وهو المرجع الفقهى المعتبر عند الشيعة ، وشأنه عندهم شأن أبى حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، وابن حنبل عند أهل السنة ، وبلغ من زهد الإمام جعفر فى الحكم أن مدبِّرى الانقلاب العباسى عرضوا عليه الخلافة .. فعافتها نفسه .. ورفضها فى إباء وشمم .

وسار عَلِىُّ الرضا على نهج جعفر الصادق فى الصلاح ، والتقوى ، والترفُّع عن مفاتن الدنيا ، واعترف له معاصروه بصفات الجلال والكمال ، ومما يؤثر عن الشاعر أبى نواس أنه لم يقل فيه شعرا قط . فقال له بعض أصحابه : **يا أبا نواس .. ما رأيت أوقح منك ، ما تركت خمرا ولا غرضا إلا قلت فيه شعرا .. وهذا عَلِى ابن موسى الرضا أنبل رجال عصرك ولم تقل فيه شعرا ..** فقال أبو نواس : **والله ما تركت ذلك إلا إعظاما له .. وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله ..** وقد نظم أبو نواس هذا الحوار فى أبيات إليك نصها :

قيل لى أنت أحسنُ الناس طُرا
فى فنونٍ من الكلام النبيه
لك من جيدِ القريضِ مديحُ
يُثمرُ الدرَّ فى يَدَىْ مُجتَبِيهِ
فعَلامَ تركتَ مدحَ ابنِ مُوسى
والخصالُ التى تجمَّعنَ فيهِ
قلت : لا أستطيعُ مدحَ إمامٍ
كان جبريلُ خادماً لأبيهِ

والمقصود بأبيه المصطفى ﷺ .

وقد توسَّم الخليفة المأمون الصفات الرفيعة عند عَلِىّ الرِّضا فاختاره وليا لعهده .. وهو قرار خطير يعنى نقل الخلافة من البيت العباسى إلى البيت العَلَوِىّ ، وكتب المأمون بهذا القرار إلى المؤسسات الرسمية فى أنحاء الإمبراطورية العباسية ، وأمرهم بطرح السواد شعار العباسيين ، ولبس الخضرة شعار الشيعة ، ويبدو أن المأمون أراد بهذا الانقلاب السلمى استرضاء الشيعة الفُرْس لعدة أسباب : منها أنهم أخواله ، ومنها أنه تربى فى أحضان البرامكة فنشأت عنده ميول شيعية ، ومنها أنه أراد مكافأتهم على وقوفهم معه فى صراعه الدموى ضد أخيه الأمين حتى تم له النصر عليه .

ولم يستسلم زعماء البيت العباسى لهذا القرار الذى يسحب البساط من تحت أقدامهم ، فنقموا على المأمون ، ودبروا لخلعه ، ومنهم عمه المطرب المشهور إبراهيم ابن المهدى . عندئذ تراجع

المأمون عن قراره ، ويقال أنه دس السم لعلى الرضا حتى تخلص منه ، ولكنى لا أميل إلى قبول هذه الرواية . فلم يكن المأمون من الحكام الغادرين الذين يسلكون هذا المسلك الدنىء .. ولا يستبعد أن تكون مؤامرة التخلُّص من عَلِّى الرِّضا من تدبير رجال القصر الذين يتدخلون فى الوقت المناسب حفاظا على نفوذهم ، ويحمل الحكام أوزارهم .

لغـــز الأرْقَــــام

يزعم أهل الفلك أن الأرقام لها ارتباط بحياة الإنسان ، ولو صحَّت هذه المقولة فإنها تَصِحّ على الخليفة المعتصم والرقم (ثمانية) حتى أطلقوا عليه لقب (المثمن) فهو ثامن الخلفاء العباسيين ، والثامن من نسل العباس ، وثامن أولاد هارون الرشيد ، وقد ولد المعتصم سنة ثمان وسبعين ومائة هجرية ، وتولَّى الخلافة سنة ثمانى عشرة ومائتين وبلغت سنوات حكمه ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وعاش ثمانيا وأربعين سنة ، وطالعُه برجُ العقرب وهو ثامن الأبراج ، وفتح ثمانية فتوح ، وقتل ثمانية أعداء ، وخلَّف ثمانية أولاد وثمانِىَ بنات ، ومات لثمان بقين من ربيع الأول .

وقد استغل شاعر الهجاء الصعلوك دعبل الخزاعى هذه الرابطة الغريبة بين المعتصم والرقم ثمانية ، وجعل منها محور قصيدته التى هجا فيها المعتصم فقال :

مُلوكُ بَنِى العبَّاسِ فى الكُتُب سبعةٌ
ولم يأتِنَا فى ثامنٍ منهم الكتب
كذلك أهل الكهفِ فى الكهفِ سبعة
غداة ثووا فيها وثامنهم كلبُ
وإنى لأزهى كلبهم عنك رغبةً

لأنك ذو ذَنب ، ولـيس لـــه ذَنبُ
وَهَـــمك تُرْكِـــيٌّ عليـــه مهانـــة
فَـأنتَ لـــه أم ، وأنت لـــه أبُ

وفى القصيدة نقد لاذع للمعتصم لأنه فتح الباب على مصراعيه أمام العنصر التركِّى حتى تحكموا فى رقاب الناس ، وفيها كذلك إشارة إلى جهالة المعتصم ، وقد عرف عن المعتصم عزوفه عن العلم منذ صغره ، وكان يتردد على الكتاب ومعه غلام يتعلَّم معه ، فمات الغلام ، فلما أخبره أبوه الرشيد بوفاة زميله قال الابن : **نعم ياسيدى** .. واستراح من الكُتَّاب ! فبهت الرشيد وقال له : **وإنَّ الكُتَّاب ليبلغ منك هذا** .. **دعوه ولا تعلموه** !! فكان المعتصم شبه أمى يقرأ ويكتب بصعوبة .

ولعل هذا الجهل الذى أصاب المعتصم هو الذى دعاه إلى إيذاء الإمام أحمد بن حنبل فى محنة خلق القرآن ؛ إذ كان المعتصم أبعد الناس فهما لدقائق هذه القضية التى خفيت على العلماء .. فما بالك بحاكم جاهل لم يُؤتَ حظا من العلم .. وقد اعترف نفسه بهذه الحقيقة عندما وردت إليه رسالة من أحد الولاة يسأله فيها عن مشروعية الخراج على (الكلأ) و لم يفهم الخليفة ماهو الكلأ ، فسأل وزيره أحمد ابن عمار البصرى و لم يكن أقل جهلا من سيده .! عندئذ قال المعتصم فى حسرة : **خليفةٌ أُمِّىٌّ .. ووزير عامّى .. !!**

وليس معنى ذلك أن المعتصم كان خلوا من صفات الكمال ، فقد عَوَّضته الطبيعة عن النقص العقلى بسطةً فى الجسم ، وقوة خارقة

فى العضلات ، ودخل المعتصم تاريخ البطولات الحربية عندما غزا الروم فهزمهم هزيمة مروّعة ، وفتح عمورية ، وقتل منهم ثلاثين ألفا ، وسبى مثلهم ، وسجَّل الشاعر الكبير أبو تمام هذا النصر المؤزر فى قصيدته المشهورة التى مطلعها :

السَّيْـفَ أصْدَقُ أنبـاءً مـن الكُـتُبِ
فى حَـدِّه الحدُّ بين الجـدِّ واللَّـعِبِ
أين الروايَة ؟ أم أين النُّجُـوم ؟ ومـا
صَاغُوه من زُخْرفٍ فيها ومن كـذِبِ

وهى إشارة إلى أقوال المنجمين الذين حذروا المعتصم قبل خروجه ، وخوَّفوه من الهزيمة ، ولكن الله كذَّب فَألهم .. فانتصر المعتصم .. وكذب المنجمون .

انقــــــــلاب

جلس السلطان عبد الحميد على عرش الإمبراطورية العثمانية بعد انقلاب داخلى دبَّره رجال الإصلاح الذين راعهم انحدار الأمور فى الدولة ، وتفكُّك عراها ؛ بسبب نزعة الاستبداد المتحكمة فى سلاطين آل عثمان ، وتعهد عبد الحميد بأن يحكم البلاد حكما شوريا ديمقراطيا دستوريا ، وأقسم بأغلظ الأيمان أن يرفع القيود المفروضة على تيار التجديد والإصلاح .. ولكن سرعان ما تنكَّر عبد الحميد لكل تعهداته ، فألغى الدستور ، وضيق الخناق على دعاة الإصلاح ، وعاد إلى ممارسة الطغيان والاستبداد كما كان يفعل أسلافه ، وهناك شبه إجماع بين مؤرخى هذا العصر على أن الشيخ أبو الهدى الصيادى كان العقل المدبر لهذه الحركة الانقلابية الرجعية ، وهو الذى كان يزين للسلطان حكم الطغيان ، وينفره من الإصلاح والتجديد حتى يظل الفساد ينخر فى جسد الدولة ، وحتى يظل الصيادى وزمرته من المرتزقة والمفسدين والمتاجرين بالدين ، فى مواقعهم المرموقة التى تتيح لهم النهب والسلب .

كان هذا الفريق ، بزعامة الصيادى ، على استعداد للقتال حتى الموت من أجل بقاء الفساد ، ووأد أى حركة أو صوت يدعو إلى التجديد ، وكان أمرا متوقعا أن يحدث الصدام بين تيار المفسدين

والخونة والجهلة ، وتيار الإصلاح الذى كان يضم نخبة من العلماء والسياسيين والمفكرين مثل : مدحت باشا - وسيأتى الحديث عنه - وفيلسوف الشرق السيد جمال الدين الأفغانى ، والثائر المصرى المشهور عبد الله النديم تلميذ الأفغانى ورفيق حلقته الثورية فى القاهرة ، وقد جمعت عاصمة الخلافة بين الأستاذ والتلميذ بحد نفى وتشريد ، كما جمعت بينهما الرغبة الصادقة فى إنقاذ دولة الخلافة من هاوية الفساد والتخلف والجمود .. ولكن كان من المحال أن يتحقق شىء من ذلك فى وجود رموز الفساد وهم يسيطرون على عقل السلطان وقلبه .

يقول الأستاذ أحمد أمين :

ذهب الأفغانى إلى الآستانة فوجد نفسه محفوفا بعطف السلطان عبد الحميد - ولو ظاهرا - يزوره الأفغانى ويشير عليه بالإصلاح . قال له مرة : خذ بحزم جدك السلطان (محمود) واقْصِ الخائنين من خاصتك الذين يتكتمون عنك حقائق ما يجرى فى البلاد ، وخفف الحجاب عنك ، واظهر للملأ ظهورا يقطع من الخائنين الظهور ، واعتقد أن نعم الحارس الأجل .. (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

ولكن كل هذا ذهب مع الريح ، ووجد السيد (الأفغانى) له فى الآستانة خصما لدودا هو أبو الهدى الصيادى الذى أتقن فن الحيل ، والدهاء ، والدسائس ، والمؤامرات ، والغلبة على عقل السلطان مالا ينفع معه إخلاص جمال الدين وصراحته ونصحه ، ففسدت حياة

السيد ، وفسدت ما بينه وبين السلطان ، وضاع كل أمل له فى التعاون على الإصلاح ، وأصبح يقول فى مجالسه الخاصة :
إن هذا السلطان سل فى رئة الدولة .

وقضى الأفغانى السنوات الأربع التى عاشها فى الآستانة سجينا فى قفص من الذهب ، مشغولا بإحباط المؤامرات التى كان يدبرها له الصياد ، أما النديم فقد ألف كتابا أسماه (المسامير) وضع فيه كل ما يعتمل فى نفسه من غيظ ونقمة على هذا الأفاك .

شكيبًا .. شكيبا

كان الشيخ المزيف أبو الهدى الصيادى يعمل جهده على أن يحتكر عقل السلطان عبد الحميد ، ويطرد عنه كل رجل شريف يَشْتَمُّ منه رائحة الصلاح والشرف والنزاهة ، فلما جاء السيد جمال الدين الأفغانى إلى الآستانة بناء على دعوة السلطان تخوَّفَ الصيادى ، ورأى فى وجود الأفغانى خطرًا يهدد نفوذه ومكانته عند السلطان ، فسعى إلى تدبير الدسائس وإطلاق الشائعات الخسيسة التى تناولت الأفغانى فى عقيدته حتى قال عنه إنه مارقٌ عن الدين مروق السهم من الرمية (!!) .

وكان الأفغانى يترفَّع عن الرد على هذه الصغائر ؛ لأنه كان يعتبر نفسه أكبر من السلطان ومن حاشيته الفاسدة ، فيترك هذه السهام الحقيرة تتساقط عند قدميه ولا تنال من كبريائه وشموخه ، وحدث أن قام الخديو عباس حلمى الثانى بزيارة الآستانة واستأذن القصر فى مقابلة الأفغانى للاسترشاد بعلمه ، ولكنهم رفضوا طلبه ، فلما علم الأفغانى برغبة الخديو بعث إليه باقتراح إتمام اللقاء صدفة فى بعض المتنزَّهات التى تعوَّد الأفغانى أن يرتادها فى المساء ، وتم اللقاء بينهما على انفراد ولم يحضره ثالث ، ومع ذلك رفع الجواسيس إلى الحضرة السلطانية تقارير تزعم أن الأفغانى تعهَّد

للخديو بالعمل على إسقاط دولة آل عثمان ، وإقامة دولة عباسية ، واختلقوا بيتين من الشعر هما :

شادَ الخلافةَ في بني العباسِ
عباس لكنْ نعتُه السَّفّاحُ
ولأنت خيرُ مملكٍ ستشيدها
بالبشرِ ياعباسُ ياصَفّاحُ

وتكهربت دوائر النفاق والملق في قصر الخلافة ، واستدعى عبدُ الحميد الأفغاني ليعاتبه على مانسب إليه ، ومع أن الأفغاني لم يقرض شعرًا في حياته إلا أنه قال : الأمر بسيط ولا يحتاج إلى برهان .. لقد ذكرت التقارير أنني اجتمعت مع عباس على انفراد .. فمن سمع هذا القول ؟ وعرف أن الصيادىَّ هو الذى دبر هذه الدسيسة .

وكانت رائحة الفضائح الخلقية التي يمارسها الصيادي تصل إلى القاهرة فيتناولها الشعراء بالتشنيع والسخرية والاستهجان ، وكان المصريون أكثر جرأة من أي ولاية عثمانية أخرى في نقد دولة الخلافة لأسباب كثيرة أهمها حرية الصحافة التي تمتعت بها في وقت مبكر ، وكان الشيخ الصيادي ، الذي ولاه السلطان مشيخة المشايخ الصوفية ، مفتونا بغلام صبوح الوجه اسمه (شكيب) ، وحدث في عام ١٩٠١ أن هرب شكيب إلى مصر ، ورفض العودة إلى سيده ، واستغلها الخديو عباس فرصة لفضح الصيادي فأغرى الغلام بالبقاء في مصر ، ولم يتحمل الصيادي فراق غلامه فانتابته

العنة ، ولجأ إلى السلطان ليستخدم نفوذه لإعادة شكيب إلى تركيا .. وقد نظم شاعر النيل حافظ بك إبراهيم قصيدة على لسان الصيادى تعبر عن محنته بعد فراق شكيب له يقول فيها :

أحرق الدُّفَّ لو رأيت شكيبا
وأفُضُّ الأذكارَ حتى يغيبا

هو ذكرى وقبلتى وإمامى
وطبيبى إذا دعوتُ الطبيبا

لو ترانى وقد تعمدت قتلى
بالتنائى رأيت شيخًا حريبا

كان لا ينحنى لغيرك إجلالاً
ولا يشتهى سواك حبيبا

لا تعيبنَّ يا شكيب دبيبى
إنما الشيخ مَنْ يدبُّ دبيبا

كم شربت المدام فى حضرة الشيخ
وكم سقيت الحليبا

فسلوا سبحتى فهل كان تسبيحى
فيها إلا شكيبًا .. شكيبا

أبو الهدى الصيادى

كان الشيخ أبو الهدى الصيادى أكبر وأخطر شخصية فى البلاط العثمانى خلال العقد الأول من القرن العشرين ، وأقرب المقربين إلى قلب السلطان عبد الحميد ، وبلغ من نفوذه أن قصده الأمراء والوزراء والكبراء والعلماء من شتى أنحاء الإمبراطورية يلتمسون رضاه ، وينشدون عطاياه ، ويتَّقون غضبه ، فقد كانت كلمته قانونا ، وإشارته توجيهًا ، ونقمته على خصومه نكبة تهوى بهم إلى قاع الجحيم .

وإذا عرفت أن الصيادى هذا – على جلالة قدره – كان أفَّاقا دجَّالا مُشَعْوِذًا ، وأنه كان فى بداية حياته صعلوكا من فقراء الطرق الصوفية لا يستر جسده ثوبٌ ، لأدركت أنك أمام شخصية غريبة تستحق الدراسة ، ولعل أول ما يطالعنا من قصة الرجل هذا السؤال : كيف استطاع هذا الدجال أن يخترق الأسوار والحواجز التى وضعتها التقاليد العثمانية الجامدة ، وكيف تخطى عشرات من رجالات الدولة وعظمائها حتى وصل إلى رأس الدولة العلية فعاث فيها فسادا ، وكيف تمكَّن من السيطرة على عقل السلطان عبد الحميد الذى اشتهر فى التاريخ بالذكاء والدهاء ، والذى وصفه السيد جمال الدين الأفغانى بقوله : إن السلطان عبد الحميد لو وُزِنَ

بأربعة من نوابغ رجال العصر لرجَحهم : ذكاء ودهاء وسياسة !!.

هل كان عبد الحميد ساذجا إلى حد الغفلة عن حقيقة الرجل فأطلق له الحبل على الغارب ؟! لقد فشلت المحاولات التى بذلها المخلصون من رجال الدولة لإنقاذ السلطان من سيطرة الصيادى ، وسدَّ السلطان أذنيه وسار كالمغيَّب المسحور وراء شعوذة الرجل ، وكان عبد الحميد يرفض الاستماع إلى نصائح الناصحين ويقول لهم : عجبت لهؤلاء الخونة .. يحسدون شيخى ، وليس فيهم من يليق به أن يكون من خدامه (!!) فما الذى جعل سلطانا اشتهر بالذكاء والدهاء يسلِّم ذقنه إلى هذا الدجال الأشِر .. ؟

تستطيع أن تعثر على الجواب إذا وضعت يدك على نقطة الضعف التى كانت متحكِّمة فى سلاطين آل عثمان ، وهم من الترك الذين يتميزون بالبساطة فى العقيدة ، وحب كل ما يمتُّ إلى قداسة الدين ، فإذا جاءهم رجل يهذى بعبارات فيها رائحة الدين ، ويتقمص رداء الصوفية ، ويحيط رقبته بمسبحة أَلْفِيَّة ، ويزعم أنه من آل بيت النبوة .. صَدقوه .. وفتحوا له الأبواب ، ولا بأس من أن يضعوه فى أحد المناصب الدينية المرموقة ، وقربوه من عرشهم على سبيل التبرك .. من هذا المنفذ مرق الصيادىُّ كالسهم إلى عقل السلطان عبد الحميد حتى استقر فيه .. فهو حينًا يزعم له أنه رأى النبى ﷺ فى المنام ، وأن النبىَّ طلب منه أن يبلغ سلامه إلى السلطان ، وحينا يقصُّ عليه رؤيا يزعم أنه رآها ويفسرها له بما يلائم هواه ، ويرضى غروره ، ويبشره بأن ملكه سيبقى إلى أبد الآبدين ..

وكان عبد الحميد يصدق هذه الخزعبلات ويظنُّ أنها يمكن أن تحمى عرشه من السقوط .

كان أبو الهدى الصيادى من الذكاء بحيث تمكن من قلب سلطان البحرين وخاقان البرين .. وأصبحت كل إمكانات الدولة طوع بنانه .. وكان مثله فى ذلك مثل راسبوتين الدجال الروسى الذى تمكن من قلب الإمبراطورة ألكسندرا عن طريق الشعوذة حتى استطاع إقناعها بقدرته على علاج ابنها المريض .. وسار الصيادى على نفس الطريق الذى سلكه راسبوتين .. وارتكب نفس الجرائم التى ارتكبها الدجال الروسى .

مدحـــت باشــــا

لما آذنت شمس الإمبراطورية العثمانية بالمغيب ، تولَّى أمرها سلاطين ضعافٌ أحاطوا أنفسهم بشرذِمة من الآفاقين والمشعوذين والدجالين والأغَوَات ، وقد صار إلى هؤلاء أمر الدولة فنشروا الظلم والفساد ، وحكموا الولايات بالحديد والنار ، وحاولوا بين الرعية وحقوقها الأساسية التى ضمنها الإسلام ، وتمتعت بها شعوب أوروبا فنهضت نهضتها الحديثة ، فى الوقت الذى هوت فيه دولة الخلافة إلى حضيض الهزال والضعف والتخلف .

فى هذا المناخ المترع بالظلام والظلم بزغ نجم المصلح العظيم مدحت باشا ، فكان أشبه بومضة نور أضاءت ما حولها ثم ما لبثت أن ذوت ، كان الرجل يحمل فى قلبه جذوة الإصلاح لإنقاذ الدولة من وهدتها حتى بات الإصلاح يجرى من نفسه مجرى الدم فى الشرايين ، وبدأ مسيرته بجولة فى الديار الأوروبية يرى ويرصد ويسجل سر قوتها وفتوتها ، حتى عثر على كلمة السر التى يكمن فيها العلاج ، وهي : الحرية .. حرية الشعوب فى حكم نفسها بنفسها ، وقيام دستور يقيد سلطات الحكام ويضمن حقوق الأفراد ويسوِّى بينهم دون تفرقة بين عنصر ودين ، وإنشاء المجالس النيابية على غرار ما هو قائم فى أوروبا ، وباختصار رأى مدحت فى النظام

الديمقراطية طوق النجاة الذى يحمي الدولة من الأعاصير المدمرة ، ويضمن للأفراد العدل والإنصاف ، ويرفع من روحهم المعنوية فتطمئن نفوسهم ، ويزداد عطاؤهم ، ويتلاشى من نفوسهم الحقد على الدولة ونظامها .

ونجح مدحت باشا فى اجتذاب عدد من ذوى النفوس الشريفة فشاركوه حلم الإصلاح ، وتكون منهم تيار قليل العدد ، ولكنه قويُّ الحجة فى مواجهة جحافل المنتفعين بالفساد ، والراغبين فى دوام الحال على ما هو عليه حتى يستمر استنزافهم لموارد الدولة .

هل كان يمكن لمثل هذا المصلح العظيم أن يشقَّ طريقه وسط الأدغال والأحراش ، والطريق مفروش بأشواك الدسَّاسين والجهلة والمستبدين وتجار الدين ، وكلهم يتربص بكل حركة تدعو إلى الإصلاح ويرى فيها فتنة تهدد نظام الدولة ، وتخدش نفوذ السلاطين ، وفى رأيهم : سلطان غشوم خير من فتنة تدوم (!!) .

لقد تظاهر سلاطين آل عثمان بالموافقة على برنامج الإصلاح الذى أعده مدحت باشا ، وعهد إليه السلطان عبد العزيز بتنفيذه ، فبدأ بضبط الميزانية العامة للدولة ، وأقامها على أرقام حقيقية لا صورية ، وسدَّ منافذ التبذير والإسراف ، وضيَّق على السلطان وحاشيته وحجب عنهم المال اللازم لشهواتهم وعبثهم ومجونهم .. ولم يستمر مدحت باشا أكثر من ٧٥ يومًا عاد بعدها إلى الظل ، ولكن الرجل لم ييأس ، وظل يكافح من أجل إنقاذ دولة الخلافة ، حتى إذا جاء عبد الحميد – أمير الدهاء – استدعاه من مكمنه وعهد

إليه بمنصب الصدر الأعظم - رئيس الوزراء - ونجح مدحت فى أن ينتزع الدستور من براثن عبد الحميد بعد أربعة أيام فقط من صدارته ، وأعلن الدستور على مبدأ الشورى والمساواة بين جميع رعايا الدولة .. ودوت الفرحة فى أرجاء الدولة ، وظن مدحت باشا أن باب الإصلاح قد انفتح على مصراعيه ، ولكنه كان متفائلا أكثر من اللازم ، فقد كاد له الدَّساسون عند السلطان ، وزعموا له أن مدحت يعد لإقامة الجمهورية ، وماهى إلاَّ أيام حتى أطيح به ، وحملته سفينة إلى الأراضى الحجازية مع بعض أعوانه ، ليقضوا ما تبقى لهم من عمر فى سجن مظلم بمدينة الطائف . وحاولوا دسَّ السم له أكثر من مرة ، فلما طالت أيام مدحت دخلوا عليه الزنزانة فى عام ١٨٨٣ وقتلوه خنقا . وقبل وفاته بأيام بعث إلى أهله برسالة قال فيها : «سيكون هذا المكتوب آخر ما أكتب فيما أظن ، لقد ضيقوا علينا الخناق وقصدوا تسميمنا واحدًا بعد واحد ، ولابد أن يصلوا يوما إلى غرضهم ، فإذا جاءكم خبر وفاتى قبل كتابى فلا تحزنوا .. وأنا أرجو من الله المغفرة ، فقد مت فداء الوطن ، وأستودعُكم الخالق الباقى» .

جمهورية همام

منذ مائتى سنة أعلن شيخ العرب همام بن يوسف – زعيم قبائل الهوارة المنتشرة فى الصعيد الجوانى – العصيان والتمرد على سلطة الدولة المركزية ، وسحب الاعتراف بأمير البلاد المملوك الشهير على بك الكبير ، وأنشأ همام حكومة مستقلة ذات سلطات إدارية ومالية وقضائية أخذت تباشر نفوذها على الصعيد من المنيا إلى أسوان ، مما دفع على بك الكبير إلى تجهيز الجيوش لإخماد ثورة همام قبل أن يستفحل خطرها ويمتد نفوذها إلى شمال الصعيد وبقية أنحاء الديار المصرية ، وعهد على بك إلى قائده محمد بك أبو الذهب بمهمة قمع حركة همام ، فتقدم على رأس جيش من المماليك نحو أسيوط حيث دارت رحى معركة حاسمة انتهت بهزيمة قوات همام ، ولم يقنع على بك الكبيُر بهذه النتيجة ورأى أن يقتلع رأس التمرد حتى لا تقوم له قائمة ، فتقدمت جيوش أبو الذهب نحو فرشوط مسقط رأس همام ومركز حكومته المحلية ، وتصدى همام للمماليك فى شجاعة وكاد أن ينتصر عليهم لولا أن لجأ المماليك إلى أسلوبهم العريق فى استخدام الخيانة والغدر ، ونجحوا فى استمالة أحد أبناء عمومة همام مقابل وعد رخيص برياسة الصعيد بعد هزيمة همام ، فتخلى عن زعيمه وابن عمه وانضم إلى صفوف أعدائه ، وقد أدى ذلك إلى شيوع روح التخاذل فى صفوف قوات

همام فانهزمت وقرر همام التقهقر إلى الجنوب لتجميع صفوفه ومواصلة القتال ، ولكن الخيانة كسرت فؤاده فمات مقهورًا قرب إسنا عام ١٧٦٩م .

وقبل الحديث عن هذه الثورة ومقدماتها ونتائجها نتكلم عن الهوارة وزعيمها ، الشيخ همام بن يوسف ، والهوارة إحدى القبائل التى وفدت على مصر من المغرب فى العصر الفاطمى ، واستوطنت الأقاليم الواقعة فى غرب الدلتا من البحيرة حتى الفيوم وملكت الأراضى الشاسعة بفضل الإقطاعات التى حصلت عليها من ملوك الدولة الأيوبية ، ولكن ما إن مضى عهد الأيوبيين وجاء المماليك ، حتى تغيرت نفوس القبائل العربية تجاه الجالس على عرش مصر وقد أصبح مملوكا يفتقد مناقب الشرف والسيادة التى يجعل لها العرب اعتبارا كبيرا ، وتطلعت نفوس هذه القبائل العربية إلى حكم مصر على أساس أنها أرفع نسبًا وأكرم عرقًا وأحق من هؤلاء العبيد الذين ساقتهم ظروف الحرب ضد الصليبيين والمغول إلى مواقع السيادة على مصر ، مستغلين فى ذلك فراغ المسرح من العناصر المصرية الأصيلة .

ومنذ اللحظة الأولى لجلوس عز الدين أيبك – زوج شجرة الدر – على عرش مصر ، لم تكف القبائل العربية عن الشغب والتمرد ، واندلعت أولى هذه الثورات من دهروط – ديروط حاليا – بقيادة الشريف حصن الدين ثعلب ، وقد نادى العرب فى هذه الثورة بأنهم أصحاب البلاد ، وامتنعوا عن دفع الضرائب ، وأعلنوا أنهم

أحقُّ بالمُلْك من هؤلاء العبيد المجلوبين ، واتصلوا بصاحب دمشق الملك الناصر الأيوبى ليمد لهم يد المساعدة للقضاء على دول المماليك فى مصر ، ولكن مماليك مصر تصدُّوا لهذه الثورة بأقسى وسائل القمع ، وقبضوا على زعيمها وسجنوه فى الإسكندرية ، ولم تنقطع ثورات القبائل العربية طوال العصر المملوكى بالرغم من التنكيل والتعذيب ، ويحفل تاريخ ابن إياس بذكر الكثير من حركات التمرد التى قام بها عربان البحيرة والشرقية ضد السلطات المملوكية ، وكانت ثورة همام بن يوسف شيخ قبائل الهوارة أضخم هذه الثورات وأكثرها تأثيرًا فى مجرى الأحداث .

صراع الأقوياء

كان الصراع بين على بك الكبير ، أمير البلاد ، والشيخ همام ابن يوسف زعيم الصعيد ، أمرًا محتومًا ، فقد كان على بك من طراز الحكام المستبدين الذين لا يقبلون شريكا فى الحكم ، وكان يسعى إلى الانفراد بحكم مصر فبدأ بالتخلص من كل الزعامات العسكرية التى يخشى منافستها وغدرها ، وعن طريق الخديعة والتآمر تمكن على بك من القضاء على معظم الأمراء المماليك الأقوياء ، ولم يبق أمامه سوى هذا الزعيم المحلى الذى جعل من الصعيد دولة شبه مستقلة عن سلطة الدولة المركزية . لها جيش وإدارة وقضاء .

وكان بعض الأمراء المماليك الذين أفلتوا من مقصلة على بك قد لجأوا إلى الشيخ همام فآواهم وهيَّأ لهم حياة طيبة ، مما عجَّل بساعة الصدام بين على بك وهمام ودفع على بك إلى سرعة النزال للقضاء على الشيخ همام وحلفائه المماليك قبل أن تقوى شوكتهم وينجحوا فى فصل الصعيد أو اقتحام القاهرة وطرد الأمير الحاكم منها . وبدأت أولى المعارك بحملة وجهها على بك إلى الصعيد بقيادة صهره وحليفه القوى محمد بك أبو الذهب . وتوجهت الحملة إلى أسيوط فى نوفمبر ١٧٦٨ ، وتمكنت من تحريرها من

رجال الشيخ همام بدون قتال يذكر ودارت بين الطرفين رسل الصلح ، وأملى على بك شروطه وأهمها تحرير معظم أراضى الصعيد من نفوذ همام وسيطرته ، على أن يقتصر نفوذه على المناطق التى يتركز فيها الهوارة بين قنا وأسوان ، ويرفع يده عما عداه .

وقبل الشيخ همام شروط الصلح وانسحبت قواته من أسيوط ، وفى محاولة منه لاستمالة أبى الذهب أهداه إقطاعًا بلا مقابل ، ولكن هذا السلام الظاهرى لم يقنع على بك الكبير بالسكوت عن مملكة همام ، فقد كان هدفه الأساسى القضاء المبرم على دولة همام ولم يشأ أن يترك له فرصة التفكير وإعادة تنظيم صفوفه وحرص على استفزازه حتى لا يهدأ له جنب ، فأرسل إليه يطلب منه تسليم الأمراء المماليك الذين يعيشون فى كنفه ، وهنا أدرك همام أن الصراع بينه وبين على بك الكبير لن ينتهى إلا بالقضاء على أحدهما ، فأخذ يعمل على إعداد جيش كبير من رجال الهوارة وأهالى الصعيد ومعهم الأمراء المماليك المنشقون على أميرهم الأكبر ، وكانت خطته انتزاع أسيوط من جنود على بك ثم التوجه إلى القاهرة للإطاحة بعلى بك نفسه .

ونجحت قوات همام فى مهمتها الأولى ، عندئذ بعث على بك ثلاثة جيوش قوية مدربة بقيادة محمد بك أبو الذهب ، ودارت عند أسيوط معركة حامية انتهت بهزيمة قوات همام ، ومع ذلك أخذت جيوش أبو الذهب تواصل زحفها نحو فرشوط – مركز نفوذ همام – وأدرك همام أن رأسه هو المطلوب وأن نجمه يميل نحو

الأفول ، ورأى أقرب الناس إليه – ابن عمه – يتخلى عنه وينحاز إلى صفوف عدوه ، فغادر همام مسقط رأسه فرشوط لآخر مرة ولجأ إلى إسنا حيث لفظ آخر أنفاسه كمدًا وحزنًا فى أول نوفمبر ١٧٦٩، وهو فى نحو الستين من عمره ، وبوفاته انتهت حياة هذا الزعيم الفذ الذى جمع حوله قلوب قومه وعشيرته بما كان يتمتع به من كرم وشجاعة وحب للعدل والإنصاف . لقد أراد همام أن ينشر العدل والأمن والرخاء فى الصعيد فنجح نجاحا باهرًا ، ولعب دورًا بارزًا فى تاريخ مصر السياسى فى القرن الثامن عشر ، وأثبت أن فى مصر رجالا يستطيعون التصدى للحاكم المستبد الطاغية حتى تكالبت عليه قوى الدولة وكسرت شوكته وقضت على مشروعه إلى الأبد .

وبعد خروج همام من فرشوط دخلها محمد بك أبو الذهب فاستباحها لرجاله طبقا لتقاليد العصر ، فنهبوا أموال همام ، واقتحموا دياره وديار أقاربه وأتباعه وسلبوا ماكانت تحويه من ذخائر وغلال ودواب ووضع على بك الكبير يده على الأراضى الشاسعة التى كانت تخضع لنفوذ همام .. وانسدل الستار على هذه الدويلة التى ومضت مثل البرق ثم انطفأت وباتت مجرد ذكرى فى دعاء التاريخ .

نهـايــة حـلــــم

هل كانت دولة همام بن يوسف دولة انفصالية ؟ وهل كان الشيخ همام يعمل على فصل الصعيد عن الوجه البحرى ؟ هذا السؤال هام لأن الجواب عليه يلقى الضوء على هذه الحركة التى قامت فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ، بقيادة زعيم محلى ليناطح السلطة الاستبدادية التى كان يتمتع بها الحاكم المملوكى الغريب على بك الكبير .

وقد انقسم كتاب التاريخ حول تقويم حركة همام .. وعرضت علينا الدكتورة ليلى أحمد عبد اللطيف فى كتابها الوثائقى عن همام( ) وجهات النظر المختلفة وأسانيد كل منهما .. فمن الذين ذهبوا إلى أن همام أقام «جمهورية» فى الصعيد ؛ الدكتور لويس عوض ، واستند فى ذلك إلى وصف رفاعة رافع الطهطاوى لإمارة همام بأنها كانت ، «جمهورية التزامية» واستند كذلك إلى أن الجبرتى وصف الشيخ همام بصفة الملكية حين لقبه «بالأمير شرف الدين» .

( ) (مرجع هذا البحث ، كتاب : الصعيد فى عهد شيخ العرب همام ، للدكتورة ليلى عبد اللطيف أحمد أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الأزهر ، نشر الهيئة العامة للكتاب) .

ومن ناحية لقب المملوكية أو الإمارة تقول الباحثة إن هذا اللقب لم يستخدم للدلالة على الإمارة أو الملكية فى العصر العثمانى المملوكى الذى عاش فيه همام ، وإنما استخدم بهذا المعنى فى عصر سابق له ، وهو العصر الفاطمى ، وإن الجبرتى حينما لقب همام بلقب «الأمير» إنما كان يقصد التفخيم فقط . وكلنا يذكر أن الملك فؤاد منح ابنه فاروق لقب «أمير الصعيد» على سبيل التشجيع والتكريم وليس بهدف الانفصال .

•

ومن حيث «الجمهورية» تقول الباحثة بعد استقصاء هذا الأمر فى أضابير الآثار العثمانية : إن الشيخ همام لم يطبق نظام حكم جمهورية فى الصعيد ، وإن حكم همام كان على شكل سلطة واسعة ونفوذ كبير قدمته له سلطته كملتزم لمعظم أراضى الصعيد من المنيا إلى أسوان بالإضافة إلى ما كان يسنده من عصبية قبلية قوية فى منطقة كان لقبيلته فيها سابق السيادة فى العصر المملوكى ، ولم يكن همام ولا معاصروه يعرفون معنى الحكم الجمهورى ولا مفهومه . وقد كان لهمام حكومة واسعة وإدارة حافلة بالمباشرين والموظفين لتنظيم أراضيه الشاسعة وما فيها من فلاحين تربطهم بهمام صلات متعددة ، وقد اعتاد همام عقد مجالس عامة للتعرف على مشاكل فلاحيه وأهالى الصعيد وإصدار أوامره بالحلول التى يراها لفض تلك المشاكل والمنازعات لتسير الأمور بدقة ، وتنظيم الحياة فى أراضيه ، وقد كانت علاقة الشيخ همام بالفلاحين تحكمها العادات القبلية بالنسبة للعاملين فى الأرض من الهوارة ،

وتحكمها نظم الالتزام وقواعده بالنسبة للفلاحين الآخرين .. وقد كان همام عادلاً مع الجميع فالكل أمامه سواء .

● هل كان همام يفكر فى الانفصال عن الدولة المركزية ؟

تقول الدكتورة ليلى : ربما كان الشيخ همام قد ساروته فكرة فصل الصعيد عن الوجه البحرى نكاية فى على بك الكبير ، وزلزلة لحكمه الانفرادى الاستبدادى ، ولكنه وقت توجيه حملة على بك الكبير إلى الصعيد ، لم يكن همام قد أعلن تلك الفكرة أو أفصح عن شيء منها ، فهو لم يعلن الحرب رسميًّا على أمير البلاد على بك الكبير ، ولكنه تحالف مع أعدائه من الأمراء الذين نفاهم على بك إلى الصعيد أو خرجوا إليه هاربين من وجهه ، فرحب بهم الشيخ همام ، وجهزهم بالسلاح والعتاد وأغراهم بالتقدم نحو أسيوط وامتلاكها تمهيدًا لفصل الصعيد عن الوجه البحرى ومقدمة لتقدمهم إلى القاهرة لطرد الحاكم المستبد على بك الكبير منها والقضاء على حكمه نهائيا .

ولكن ما كان أسرع على بك الكبير لوأد هذه الفكرة قبل أن تخرج إلى النور .. وكانت النهاية .

سـد أسـوان

ترامى إلى سمع خليفة مصر الفاطمى الحاكم بأمر الله أن عالم البصرة المشهور الحسن بن الهيثم يقول : «لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل النفع فى كل حالاته من زيادة أو نقصان» . ورغم انقطاع العلاقات الرسمية بين حكومة مصر الفاطمية وحكومة بغداد العباسية ، إلاَّ أن الصلات العلمية والأدبية والبشرية لم تكن مقطوعة ، ولم تكن الحكومات تفرض قيودًا على حركة العلماء بين العواصم الإسلامية ، وبعث الحاكم بأمر الله وفدًا إلى العراق لإقناع الحسن بالحضور إلى مصر وتطبيق مشروعه الكبير .. ولبَّى الرجل الدعوة وجاء إلى مصر ، فخرج الحاكم بنفسه لاستقباله عند ظاهر القاهرة عند قرية تسمى الخندق ، وأمر بإنزاله فى أرفع المنازل . وهذا يدلُّك على مكانة العالم الكبير ، ويدلُّك أيضا على تقدير الحاكم بأمر الله للعلماء والمبدعين ، وبعد فترة استجمام قصيرة طَلَبَ منه السفر إلى أسوان لمعاينة الموقع الذى يصلح لبناء مشروعه ، وسير معه جملة من المهندسين والمعماريين مزودين بكل ما يحتاجه من أدوات ومعدات هندسية .

ووصل الحسن ورفاقه إلى منطقة الجنادل جنوبى أسوان حيث ينحدر مجرى النيل من أعلى إلى أسفل ، فعاين الموقع واختبره من

جانبيه ، ولكنه وجد صعوبة فى تنفيذ الفكرة ، وأن الواقع يختلف عن الحلم ، وشعر بالحرج من إعلان الفشل ، وخشى من بطش الحاكم فادّعى الجنون حتى يفلت من القتل .

والمصادر التاريخية لا تسعفنا بأسباب استحالة بناء سد يحجز مياه الفيضان خلفه . ففكرة بناء السدود قديمة ومذكورة فى القرآن الكريم ، حيث تمكن أهل سبأ من بناء سد فى مدينة مأرب باليمن . ولكن المؤرخ ابن أبى أصيبعة يقدم لنا سببًا غريبًا فيقول : إن الحسن ابن الهيثم وهو فى طريقه إلى أسوان شاهد آثار ملوك مصر الأقدمين ، «وما هى عليه من روعة الصنعة ودقة الهندسة وما اشتملت عليه من أشكال سماوية ومثالات هندسية وتصوير معجز ، فتصاغرت أفكاره بالمقارنة إلى ما فعله الفراعين» .. وتحقق أن الذى يقصده ليس بممكن ، ولو كان ممكنا لفعله هؤلاء الجبابرة .. فانكسرت همته .. ووقف خاطره .. ووصل إلى الموضع المعروف بالجنادل .. وتحقق الخطأ فيما وعد به .. وعاد إلى القاهرة خَجِلاً منخذلاً .. واعتذر عما قاله سلفا .

ويقول نفس المؤرخ إن الحاكم بأمر الله قبل عذره وولاه بعض الدواوين فتولاَّها رهبة لا رغبة ، ولما كان يعرف عن الحاكم سرعة تقلُّبه وحبه لسفك الدماء لأتفه الأسباب ، فكر فى حيلة يتخلص بها من نقمة الحاكم فلم يجد طريقا إلى ذلك إلا إظهار الجنون والخبال ، وشاع ذلك فى محيط القصر الفاطمى ، وصدق الحاكم الخدعة ، وخصص له بعض الخدم لرعايته فى منزله ، حتى إذا مات

الحاكم أظهر الحسن العقل وعاد إلى حالته الطبيعية . وخرج من داره واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر ، وأقام بها متنسكا مشتغلا بالعلوم .

ولكن أهم ما خرج به الحسن من سجنه الاختيارى هو التوصل إلى نظرية جديدة فى مسارات الضوء .. وهى النظرية التى قلبت النظريات السابقة فى علم البصريات .. فقد كان العلماء يظنون أن العين ترسل الشعاعات البصرية إلى الأجسام المرئية .. فقال الحسن بالعكس وهو الصحيح .



مذاهب

لو بحثت فى قوائم المذاهب الفقهية فى مصر ، فستجد المصريين ينتسبون إلى المذاهب الأربعة بدرجات متفاوتة ، فأغلبهم يأخذ بمذهب مالك ، وبعضهم يأخذ بمذهب الشافعى أو أبى حنيفة ، وقلة تنتصر لمذهب الإمام أحمد بن حنبل .

وترجع غلبة المذهب المالكى إلى أسباب تاريخية قديمة ، فمذهب مالك هو أول ما عرف المصريون من مذاهب الفقه التى أخذت فى الظهور فى القرن الهجرى الثانى ، فكان له فضل السبق على غيره ، ورغم أن الإمام مالكًا (رضى الله عنه) لم يغادر مدينة الرسول ﷺ ، فإن المصريين أقبلوا على مذهبه ثقة به ، وقد وجدوا فى مذهبه اعتدالا يناسب طبيعتهم الوسطية ، ويوافق ميلهم إلى التمسك بالنص والأثر ، ونفورهم من الجدل والتفلسف ، ووجد مالك بين المصريين تلاميذ ومريدين روَّجوا لمذهبه ، وقرأوا على مواطنيهم كتابه الشهير (الموطَّأ) حتى انتشر المذهب وترسخت جذوره بين جمهرة المصريين .

وقبيل ختام القرن الثانى هبط إلى مصر الإمام محمد بن إدريس الشافعى ، ولكن المصريين لم يحسنوا استقباله ، وتوجَّسوا منه خيفة بسبب ميله إلى الأخذ بالرأى والقياس فى استنباط الأحكام ، وكان الشافعى قد عاش سنتين فى العراق قبل مقدمه إلى مصر ، واقترب من مذهب أبى حنيفة الذى يضع الرأى فى منزلة رفيعة ، فثار المصريون فى وجه الشافعى ، وبلغت ثورتهم حد الاعتداء عليه بالضرب ، وهو يلقى دروسه فى مسجد الفسطاط ، وكان الاعتداء والتربص يشملان كل من يحضر حلقته ، ويذكر المؤرخ الكندى فى كتابه «الولاة والقضاة» أن القاضى عيسى بن المنكدر كان يصيح فى وجه الشافعى وهو يلقى الدرس: «يا كذا .. دخلت بلدنا وأمرنا واحد ، ففرقت كلمتنا وألقيت الشر بيننا .. فرَّق الله بين روحك وجسدك .» .

ولكن هذه المقاومة العنيفة لم تلبث أن خفَّت حدَّتها ، بعد أن تفهم المصريون مضمون مذهب الشافعى ، وتبينت لهم طريقة الإمام فى الإقناع عن طريق المناظرة والحوار وتحريك العقول ، فكان يأتى بالآية أو الأثر ثم يشرحه ثم يستنبط منه ما انتهى إليه رأيه .. فالرأى إذن لم يكن بعيدًا عن النص .. وإلا فَقَدَ جدواه .. وأخذ المصريون يقبلون على الإمام معتذرين .. وبدأت حلقته تتسع شيئا فشيئا ، وتكتسب فى كل يوم أنصارًا ومريدين .. وأحاط به الأعيان والوجهاء يبعثون إليه بالهدايا والهبات ، وعرفانا منهم بقدره الجليل وعلمه العميق ، وكانت السيدة نفيسة (رضى الله عنها) تخصص

له مرتبا شهريا ، فينفق كل ذلك فى وجوه الخير .. وطابت للإمام الإقامة فى مصر ، وتبينت له سماحتهم وطيبة قلوبهم وبعدهم عن التعصب الممقوت ، فكان يقول لهم : «ما أقمت ببلادكم إلا حبًّا فى قصب السُّكَّر ، وكان يحبه كثيرا .. وهى كلمة تعبر عن شعور المودة نحو مصر والمصريين ، وعاش الشافعى فى مصر خمس سنوات ، كانت خيرًا وبركة على مصر والمصريين ، ولم يغادرها إلى بلد آخر حتى توفاه الله عام ٢٠٤ هـ ، فدفن فى قبره المعروف بالقرافة الصغرى ، وخرجت الفسطاط كلها تودعه .

وخلف الشافعى وراءه عصبة من التلاميذ ، حملوا مسئوية الترويج لمذهبه بين الجماهير .. أشهرهم الربيع الجيزى والربيع المرادى .. واستطاع مذهب الشافعى أن يزاحم مذهب مالك ، ويقتنص منه جانبا من الأتباع .. ولكن مذهب الشافعى لم ينتشر الانتشار الكبير إلا على يد السلطان صلاح الدين الأيوبى ، الذى كان شافعى المذهب .. وأمر بأن تكون له الغلبة بعد زوال الدولة الفاطمية الشيعية من مصر .. أما بقية المذاهب فلها حديث آخر ..

البهـــــــــــرة

فى عهد الرئيس المرحوم أنور السادات نجحت طائفة البهرة فى إقناعه بالموافقة على إعادة تعمير مسجد الحاكم بأمر الله الذى يقع فى نهاية شارع المعز لدين الله بجوار باب الفتوح بالقاهرة . وكان المسجد — وهو من أكبر مساجد العالم — قد تحول إلى مخزن لتجارة البصل والثوم ، ومأوى للقمامة وهياكل السيارات القديمة ، وأنفق البهرة ملايين الجنيهات الاسترلينية فى تجديد المسجد وتزيينه بأفخم أنواع النجف والسجاجيد والرخام حتى أصبح تحفة معمارية رائعة ، تراهم فى سراويلهم البيضاء وسحنتهم الهندية وهم يتجولون بين منطقة الحسين والسيدة زينب ويقيمون فى البيوت الملاصقة لمسجد الحاكم ، وبعضهم يمارس التجارة ، وليس فى ذلك مايدعو إلى الدهشة إذا عرفت أن كلمة «البهرة» معناها «التجار» .. فمن يكون هؤلاء البهرة ؟ وإلى أى الفرق الإسلامية ينتمون ، وما الذى دفعهم إلى إنفاق هذه الملايين على مسجد الحاكم بالذات ؟ وسبق لهم أن أقاموا مقصورة ضريح الحسين من الذهب ومقصورة ضريح السيدة زينب من الفضة .

لكى تعرف أصل البهرة لابد أن تُلِمَّ بشجرة الشيعة . فهم بقايا إحدى الفرق الشيعية التى نبتت بذرتها فى مصر قبل أن تنتقل إلى

اليمن وسوريا والهند وباكستان حيث يوجد مركزهم الرئيسى فى بومباى تحت زعامة السلطان برهان الدين .

وأنت تعلم أن الدوحة الشيعية كلها تنتمى إلى الإمام على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) ، ومن أولاده الثلاثة : الحسن والحسين ومحمد (بن الحنفية) تفرعت فرق الشيعة التى تعددت وتكاثرت على مدار التاريخ الإسلامى ، ولكن معظمها اندثر ، ولم يبق منها سوى ثلاث فرق كبيرة هى : الاثنا عشرية ، وتوجد فى إيران والعراق ولبنان ، والزيدية فى اليمن ، ثم الإسماعيلية ويتناثر أتباعها بين اليمن والهند وشرق أفريقيا (زنجبار) . ولم يبق من فروعها الآن سوى الدروز فى لبنان ، والأغاخانية أتباع أغاخان ، والبهرة موضوع حديثنا ، أما كيف نشأت طائفة الإسماعيلية ، فلابد أن نتوقف عند الإمام السادس من أئمة الشيعة (الاثنى عشرية) ، وهو الفقيه والإمام العظيم جعفر الصادق الذى اجتنب السياسة ومشاكلها وتفرغ للعلم والبحث فى أصول الدين ، فأثمرت حركته الفقه (الجعفرى) الذى يستمد منه الشيعة نظام حياتهم ، مثلما يستمد أهل السنة نظام حياتهم من الفقهاء الأربعة : أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ، وكان لجعفر الصادق ولدان هما : إسماعيل وموسى (الكاظم) وكان من المفروض أن تنتقل الإمامة من بعد جعفر إلى إسماعيل قبل موسى وفقا للنظرية الشيعية التى تجعل الإمامة فى الأعقاب تطبيقا لنص الآية الكريمة (وجَعَلها كلمةً باقية فى عَقِبه) . ولاتعترف بانتقال الإمامة من الأخ إلى أخيه ، باستثناء حادث واحد

ووحيد هو انتقالها من الحسن إلى الحسين (رضى الله عنهما) .
ويقال إن إسماعيل هذا كان يقارف الخمر فأبعده أبوه عن وراثة الإمامة من بعده ، وعهد بها إلى أخيه موسى الكاظم الذى يعتبر الإمام السابع عند الاثنى عشرية ، وكل الروايات تؤكد أن إسماعيل مات فى حياة أبيه ، ولكن بعض أتباع الإمام جعفر رفضوا هذه الروايات وقالوا إن إسماعيل لم يمت بل اختفى ليكون فرقة شيعية جديدة هى فرقة الإسماعيلية التى سيكون لها شأن كبير فى مجرى الأحداث .

الإسماعيلية

أنكر الإسماعيلية القول بوفاة الإمام «السابع» إسماعيل ، وقالوا إنه لن يموت قبل أن يملك الأرض ويملأها عدلا ، وبمرور الأيام أصبح للفرقة دعاة ومنظرون استهوتهم الأبحاث الفلسفية فى عصر كان فارقًا إلى أذنيه فى الفلسفة الكلامية ، وانكبَّ هؤلاء على وضع الأسس العقائدية للمذهب الإسماعيلى ، وصبوها فى قوالب مغرقة فى الغموض والإبهام ، لقد أخذوا من الفكر الشيعى عموده الفقرى وهو فكرة «الإمامة» ، ولكنهم شطوا وأسرفوا .. وأخذوا من الديانات الأخرى والمذاهب الفلسفية : هندية ويونانية وفارسية الشيء الكثير ، وجعلوا من «الإمام» محور الكون كله ومأوى الأسرار ومختزن العلوم الإلهية ، وأصبح اسمهم (الغُلاة) لأنهم غالوا فى سيدنا علىٍّ (كرم الله وجهه) والأئمة من بعده وخلعوا عليهم صفات ترفضها العقيدة الإسلامية التى تقوم على التوحيد الخالص وتنزيه البارىء جلَّ وعلا عن التشبيه .

وللإسماعيلية فى تاريخ الفرق والمذاهب اسم آخر هو «الباطنية» ؛ لأنهم يعتقدون أن لكل شيء ظاهرًا وباطنًا ، وأن لكلِّ تنزيل تأويلا ، ولكل كلمة وحرف فى القرآن الكريم ظاهر وباطن ، وتفسير القرآن من علوم الظاهر التى تعتمد على مفردات اللغة

العربية ، أما الباطن فهو من اختصاص الإمام الذى يجعل لكل كلمة معنى باطنيًّا مستمدًّا من أسرار لَدُنِّية هى حكر للإمام ومن يعهد إليه بها ، وعكف علماء المذهب على وضع تفسير للكون والحياة والموت والبعث والحساب والجنة والنار يختلف عن تفسير الإسلام .

وكانت الدولة العباسية تتعقب الباطنية الإسماعيلية ، وتُنْزِل بهم الضربات الموجعة فيفرون إلى الأطراف ، وفى هذه المرحلة دخل قادتهم - الأئمة - دور الستر ؛ وأصبحوا مجرد شخصيات خرافية ليس لها وجود حقيقى إلا فى أذهان أتباع المذهب ، ونجح هؤلاء فى إقامة التنظيمات السرية التى بلغت درجة عالية من الدقة والغموض ، وأخذ قادة الإسماعيلية يتنقلون بين اليمن وسوريا حتى استقرَّ بهم المقام فى المغرب ، حيث نجحوا فى الاستيلاء على السلطة وإقامة دولة فى تونس أطلقوا عليها اسم الدولة الفاطمية نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ ، وزوج على بن أبى طالب وأم الحسن والحسين ، وفى عهد الخليفة الرابع - المعز لدين الله - انتقلت الدول بجيوشها وقبائلها ونسائها وجثث الأئمة السابقين إلى مصر (عام ٣٥٨هـ - ٩٦٩م) ، وأقيمت القاهرة لتكون عاصمة جديدة لهؤلاء الحكام الجدد الذين جاءوا إلى مصر ليجعلوا منها قاعدة للخلافة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية الباطنية ، لتنافس الخلافة العباسية فى بغداد ، والخلافة الأموية فى الأندلس ، وكلاهما سنية .

وفى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر حدث أخطر انشقاق فى شجرة الشيعة الإسماعيلية ، وهو شبيه بالانشقاق الذى حدث عند الإمام السابع ، وتناثرت شظاياه فى كافة الأصقاع التى كانت تؤمن بإمامة الخليفة المستنصر ، وتنظر إلى مصر باعتبارها عاصمة الفكر الإسماعيلى .

المستعلـــــــــى

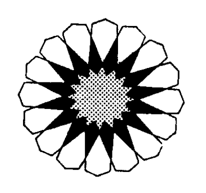
فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله حدث الانشقاق الكبير فى فرقة الإسماعيلية ، ولكن قبلٍ أن أمضى معك فى مجريات الأحداث ، سوف أتوقّف بك قليلاً عند الحاكم بأمر الله حفيد المعز لدين الله وجدّ المستنصر بالله - وهو المعروف بالخبال وغرابة الأطوار - وفى عهده أنشئت دار الحكمة ، وهى أشبه بالأكاديمية ، يعكف فيها شيوخ المذهب الإسماعيلى على تأصيل العقيدة الإسماعيلية وصياغتها فى قوالب فلسفية ، وكان طلاب العلم يتوافدون من كافة الأصقاع الإسماعيلية للدراسة فيها ، وكان بين شيوخ المذهب أربعة من الفرس استغرقتهم الأبحاث الفلسفية ثم خرجوا من عزلتهم بفكرة شيطانية تدعو إلى ألوهية الحاكم بأمر الله ، وثار أهل القاهرة على هؤلاء الكفرة وأوسعوهم ضربًا وتنكيلاً ، ونجح أحدهم واسمه إسماعيل الدرزى فى الهرب إلى جبل عامل فى لبنان حيث أسس فرقة لاتزال قائمة حتى الآن ، وأعنى بها فرقة الدروز ومعنى ذلك أن الدروز فرع من فروع المذهب الإسماعيلى الباطنى ، ولكنه يظل محصورًا فى إطار ألوهية الحاكم ولا يرتبط بصلب العقيدة الإسماعيلية .

ولنعد إلى المستنصر ، وقد طالت مدة حكمه حتى بلغت ٦٥ عامًا ، وهى أطول مدة حكم فى تاريخ الإسلام ، وفى عصره وقعت الشدة المستنصرية التى تعرضت خلالها مصر لمجاعة طاحنة ، وضربت الفوضى أطنابها فى أنحاء البلاد مما دفع المستنصر إلى استدعاء حاكم عكا القوي – بدر الجمالى – لإعادة النظام إلى مصر ، ونجحت مهمة الجمالى وقر عزمه على البقاء فى مصر إلى الأبد ، وهداه خياله إلى التفكير فى انتقال الخلافة إلى بيته عن طريق مصاهرة الخليفة المستنصر ، فتزوج المستنصر من ابنة بدر الجمالى وأنجبت له ولدًا اسماه «المستعلى» ولم يكن من حقه وراثة الإمامة فقد كانت من حق أخيه الأكبر «نزار» ولكن الوزير الأفضل شاهنشاه ابن الجمالى دبَّر انقلابًا داخل القصر تمكن خلاله من القبض على نزار وقتله وتنصيب ابن أخته «المستعلى» خليفة وإمامًا .

واعترف المصريون بإمامة المستعلى على طريقتهم فى الاعتراف بالأمر الواقع ولكن نفرًا من أتباع المذهب – وكانوا من الفرس – رفضوا هذا الخلل فى نظام الوراثة لأنه يخالف النظرية الشيعية التى تجعل الإمامة فى الأعقاب ، ولا تعترف بانتقالها من الأخ إلى أخيه ، وظلوا متمسكين بإمامة نزار .. وبذلك وقع الانشقاق فى صفوف الإسماعيلية بين أتباع المستعلى وأتباع نزار ، وبقيت مصر تابعة لإمامة المستعلى حتى سقوط آخر خلفاء الدولة الفاطمية – العاضد – وجاء صلاح الدين الأيوبى ليقتلع جذور الفاطمية من مصر ويعيد إليها وجهها السُّنِّى ، عندئذ هرب شيوخ المذهب

الإسماعيلى إلى بلاد اليمن وعملوا على نشره هناك ، ومن اليمن انتقل المذهب الإسماعيلى إلى الهند عن طريق التجار (البهرة) .

هؤلاء هم البهرة الذين شدَّهم الحنين إلى مصر بعد ألف سنة ، فمصر التى عاشت قرنين تحت حكم الفاطمية الإسماعيلية لا تزال تعيش فى قلوب الأحفاد .



متفرقات

لغة القرآن

كانت اللغة العربية فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية هى لغة الأدب والعلم والفن والتقدم .. فلا يستطيع عالم أوروبى مشتغل بالحضارة أن يصل إلى مبتغاه إلا إذا تعلم العربية ليقف على منجزات الحضارة فى منابعها الأصلية . وكان من أثر هذا الاحتكاك العلمى أن دخلت كلمات عربية كثيرة إلى اللغات الأوروبية ولاتزال تستعمل حتى الآن . وقد تتبع الباحث الكبير جلال مظهر أصول الكلمات الإنجليزية فى اللغة العربية ، معتمدًا فى ذلك على مصدرين تاريخيين ، أولهما : بحث الأستاذ والت تايلور عن (الكلمات العربية فى اللغة الإنجليزية) والثانى : معجم أكسفورد اللغوى التاريخى الذى عنى فيه واضعوه أكبر العناية بتبيان الأصول اللغوية للكلمات الإنجليزية ، وكيف تكونت مفردات اللغة الإنجليزية الحاضرة على مر العصور .

وتبين أن الكلمات العربية بدأت تأخذ طريقها إلى اللغة الإنجليزية

عن طريق اللاتينية واللغات المشتقة منها ثم العربية ذاتها . وبدأ دخول كلمات عربية عن اللاتينية فى أثناء عصر اللغة الإنجليزية القديمة وما بعده ، وبخاصة الكلمات المتعلقة بالعلوم ، وأما الكلمات التى دخلت عن طريق الفرنسية ، وهى لاتقل عن ٢٥٪ من مجموع الكلمات ، فقد بدأت تدخل ابتداء من العصر الوسيط للغة الإنجليزية (١٢٥٠ - ١٤٥٠م) ومنها كلمات كثيرة فى الكيمياء والفلك ، وأما الكلمات التى دخلت عن طريق الأسبانية والفرنسية والبرتغالية والإيطالية ، وتبلغ حوالى ٢٢٪ فقد دخلت عن طريق الترجمة وابتداء من القرن السادس عشر ، ونتيجة للتوسع التجارى والاستعمارى ، وأما أكبر مجموعة ، وتبلغ ٣٤٪ ، فقد دخلت عن طريق العربية رأسًا ابتداء من أواخر القرن السادس عشر حتى الآن ، نتيجة لاتصال الرحالة والتجار الإنجليز اتصالا مباشرًا بالأقطار العربية . وأخذت تنتشر بعد اختراع الطباعة ، وهى تستعمل فى اللغة الإنجليزية باعتبارها كلمات عربية لا إنجليزية .

وقدم لنا الأستاذ جلال مظهر فى كتابه الموسوعى (حضارة الإسلام وأثرها فى الترقى العالمى) عدة قوائم بمعظم الكلمات العربية فى الإنجليزية وتاريخ دخول كل كلمة وإليك عينة منها : فالكيمياء alchemy ، والقطران alchitran ، والكحول alchohol ، والنفط naphta

وفى قائمة المشروبات والأغذية : سكر sugar ، شراب surap ، شربات sherbet ، قهوة coffee ، ليمون lemon ، فستق

fistic ، ياسمين jasmine ، تمر هندى tamarind ، البرتقال والنارنج Orange .

وفى قائمة النباتات والمزروعات : قطن cotton ، الحناء alhenna ، البرقوق apricot ، كافور camphor .

وفى قائمة الملابس والأقمشة : فسطاط (وتطورت إلى فستان) fustain ، موصل (وتطورت إلى موسلين) muslin ، شاش sash ، ثوب tobe ، إزار izar دمقس damask ، جبة jebbah ، سروال sherwal .

وفى قائمة الكلمات الدينية : الله Allah ، القرآن Alcoran ، خليفة caliph ، هجرة hegira ، عفريت afreet ، مسجد masgid ، شيطان satan .

ومعظم هذه الكلمات اندثر استعماله فى اللغة الإنجليزية ولم يبق سوى ٢٦٠ كلمة عربية تدور على الألسنة فى الاستعمال اليومى . ولعلك تستخدمها الآن دون أن تدرك أصلها العربى .

أصحاب محمد ﷺ

يمثل العنصر البشرى عاملاً رئيسيًا فى مرحلة ظهور الأديان ، ونشوء الدول والممالك ، ففى تلك المراحل المبكرة تحمل العبء فئات قليلة من البشر تكون أسبق من غيرها فى الإيمان بالفكر الجديد وأقدر على التضحية والفداء ، وأحرص على تعزيز أركان الدين وتدعيم هيبته فى نفوس الآخرين ..

وتاريخ الأديان يحفظ الكثير عن هذه النماذج البشرية الصغيرة التى التفت من حول الرسل والأنبياء .. ركاب سفينة نوح ، ورفقاء مسيرة موسى فى صحراء سيناء ، وحواريو عيسى ابن مريم فى كهوف الناصرة ..

ولكن فئة من هذه الفئات لم تبلغ ما يبلغه أصحاب محمد ﷺ ، قوة فى الاعتقاد وعزمًا على إعلاء كلمة الله ، واستهانة بكل طواغيت الأرض ، وشدَّة على الباطل ، ورقَّة على المؤمنين .. وزهدًا نبيلاً عن كل متع الحياة .. لايحدوهم إلا الأمل فى عفو الله وفضله ورضوانه ..

ولقد أفاض القرآن الكريم فى وصف أصحاب محمد ﷺ .. وأثنى عليهم بما كانوا أهلاً له من حميد السجايا ، ويستوقفنى دائمًا هذا الوصف البديع الذى أرسى منهجًا لمن يريد أن ينتسب إلى هذه

الدوحة المباركة : «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفَّار رحماء بينهم ، تراهم رُكَّعًا سُجَّدًا يبتغون فضلاً مِنَ الله ورِضْوانًا» ..

هنا يكمن سر نجاحهم في أن يقيموا أركان الدولة الإسلامية في فترة زمنية محدودة .. لأن شجرتهم استقت من عصارة القرآن الكريم ، واستمدت رونقها من شخصية الرسول ﷺ ، فلا عجب أن تمد ظلالها الرطيبة على المجتمعات التى أحرقها الظمأ .. والشوق إلى العدل والحق والحرية ..



المنهج العلمى

كلما اتسعت المسافة الحضارية بين الدول الصناعية والدول المتخلفة تصاعدت الدعوة إلى الأخذ بالأسلوب العلمى ، غير أن هناك خلطا بين مظاهر الحضارة وجوهرها .. فالطائرة والسيارة والمختبر ومركبة الفضاء .. كلها ثمرات للعلم وليست جوهر العلم الذى يتمثل فى المنهج الذى تستخدمه المجتمعات وهى بسبيلها إلى التقدم .

ونعنى بالمنهج العلمى ذلك النوع من التفكير الذى يربط بين المقدمات والنتائج ، ويبدأ فى البحث من مدركات مباشرة لايحتاج يقينها إلى أكثر من أن يراها رؤية باطنية بلا وسيط من عمليات الاستدلال .. وهو مايعرف بالمنهج الديكارتى الذى استخدمته أوروبا وهى تنتقل من ظلام العصور الوسطى إلى عصر النهضة .

وقد يدهش المعجبون بحضارة الغرب إذا عرفوا أن أجدادنا .. هم الذين وضعوا أساس هذا المنهج قبل ديكارت بخمسة قرون ، ونخص بالذكر - فى هذا المجال - حجة الإسلام الإمام الغزالى الذى عاد إلى الشك فى المعلومات التى سبق أن حصَّلناها عن طريق الحواس أو عن طريق العقل ، ثم البدء من أوليَّاتٍ يقينية تستمد يقينها من إدراكنا لها إدراكا مباشرًا ، ثم الانتهاء من تلك الأُوليات اليقينية إلى نتائج تلزم عنها فتكون فى مثل يقينها .

رحم الله الغزالى الذى يراه بعض الباحثين فى تراثنا الفكرى شجرة مباركة .. شمخت بفروعها ورؤوسها وامتدت على العصور بظلالها .. لأنها قدمت للناس نموذج الحياة الإسلامية فكفاهم عناء التفكير ، ولم يبق لهم إلا اقتفاء الأثر ، فله علينا حق التقدير ،وليس عليه منا لوم إذا جاء الناس من بعده صغارًا تابعين .

استطرادًا للحديث .. هل يعلم أبناؤنا الذين يدرسون علم «الأقربازين» فى كليات الطب والصيدلة ، أن أجدادهم هم الذين وضعوا أسس هذا العلم الذى يقصد به علم تركيب الدواء والعقاقير .. وأنهم أطلقوا على العقاقير تعبير «عجائب المخلوقات» إيمانا منهم بأن الله الذى خلق السموات والأرض قد خلق هذه العقاقير ليستعملها الإنسان ، وتعود عليه بالنفع والخير ، وأن على الطبيب أن يعرف طرق استخدامها .

وهل يعلم الصيادلة من أبنائنا أن أجدادهم كانوا يعتبرون الأدوية المفردة هى العقاقير الأصلية فإذا جمعوا عقارين أو أكثر حصلوا على الأدوية المركبة التى أسموها «الأقربازين» ، وأعلنوا فى كتبهم أن قوى الأدوية المفردة تبلغ حدًّا بعيدًا من التأثير ، بإكمال بعضها بعضًا ، ومنها صنعوا المراهم والشراب والمعاجين والحبوب وغيرها ؟

وهل يعلم أطباؤنا المحدثون أن جدَّهم أبا القاسم الزهراوى الذى عاش فى الأندلس تربع على عرش علم الجراحة فى أوروبا طوال عشرة قرون ، وظل كتابه «التعريف لمن عجز عن التأليف» مرجعًا

يدرس فى الجامعات الأوروبية منذ عصر النهضة وحتى القرن السابع عشر ؟

والزهراوى أول من وصف عملية تفتيت الحصاة فى المثابة ، وبحث فى التهاب المفاصل والسل واكتشف مرآة خاصة للمهبل ، وصنع آلة لتوسيع عنق الرحم عند الوضع المتعسر .. واستخدم مساعدات وممرضات من النساء عند إجراء جراحة لامرأة .. وكان يرى ذلك أدعى إلى الطمأنينة والرِّقَّة ..

واذا قُدِّر لك أن تزور كاتدرائية ميلانو بإيطاليا فسوف تجد على أحد جدرانها صورة ملونة من الزجاج القديم لثلاثة من أئمة الطب المسلمين أحدهم: الزهراوى .. أما الآخران فهما : ابن سينا وأبو بكر الرازى .

لــــذَّةُ الْعَفْــــوِ

كان إبراهيم ابن الخليفة المهدى العباسى فنانا بالسليقة ، محبا للطرب ، متقنا لصناعة الألحان ، ودارت شهرته فى مغانى بغداد منافسا لإسحٰق الموصلى وابنه إبراهيم وغيرهما من نجوم الطرب .. وكان من المفروض أن تمضى حياة إبراهيم بن المهدى هنيَّة رخوة فى عالم السيكا والصبا والحجاز كار .. لولا أن أصابته لعنة السياسة ، والطمع فى السلطة ، فأشترك فى مؤامرة للإطاحة بابن أخيه الخليفة المأمون ، ولكن فشل الانقلاب ولاذ إبراهيم بالفرار ، وتعقبته عيون المأمون حتى ظفروا به ، ودخلوا به وهو يحجل فى قيوده على الخليفة فألقى عليه السلام ، ولكن المأمون قال له : **لا سلم الله عليك ، ولا حفظك ، ولا رعاك يا إبراهيم** .. وأدرك إبراهيم انه مقتول لا محالة ، فأخذ يضرب على الوتر الحساس فى نفس المأمون ، ويثير فى نفسه حبه للعفو عند المقدرة ، فقال له :

– على رسلك يا أمير المؤمنين .. وَلِىُّ الثأر مُحَكَّمٌ فى القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، وقد أصبح ذنبى فوق كلِّ ذنب ، كما أن عفوك فوق كل عفو ، فان تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك .. ثم أنشد :

ذَنْبى إليكَ عظيم وأنتَ أعظَمُ منْهُ

فخذْ بحقِّكَ أو لا فاصْفَحْ بفَضْلِكَ عَنْهُ
إنْ لَمْ أكُن فى فعَالِى مِنَ الكِرَامِ فَكُنْهُ

عنـدئذ أطرق المأمون .. ثم التفت إلى عمه وقال : **إنى شاورت أخى أبا أسحٰق (المعتصم) وابنى العباس فأشارا عَلَىَّ بقتلك ! ..** فسأله إبراهيم : **فما قلت لهما يا أمير المؤمنين ؟** قال : قلت لهما : **بدأنا له بإحسان ونحن نستأمره فيه ، فإن غير فإن الله يغير مابه ..**

و لم يكابر إبراهيم فى جريمته ، ولكن ذكاءه دفعه إلى تحريك خصال الخير فى نفس المأمون فقال له : **إما أن يكونا قد نصحاك فى عِظَم قدر المُلك ، وما جَرَتْ عليه عادةُ السياسة ، فقد فعلا ، ولكن أبيتَ أن تستجلبَ النصرَ من حيث عَوَّدَكَ الله** .. ثم اجهش بالبكاء ..

فقال له المأمون : **وما يُبكيك ؟**

قال : **جذلا** (أى خجلا) **إذ كان ذنبى إلى مَنْ هذه صفتهُ فى الانعام .. يا أمير المؤمنين ، إنه وإن كان جرمى يبلِّغُ سفك دمى ، فَحِلُم أمير المؤمنين وتفضله يُبَلِّغاننى عفوه ، ولى بعدهما شفاعةُ الإقرار بالذنب ، وحرمة الأب بعد الأب ..**

وكان لهذه الكلمات وقعها فى نفس المأمون .. لقد أهاج فى نفسه حب العفو .. وأثار كذلك حرمته .. فهو عم الخليفة .. فلانت نفسه للعفو .. وقال له :

– **القُدرةُ تُذهب الحفيظة** (أى الغضب الدفين) ، **والندمُ توبة** ،

وعفو الله بينهما ، وهو أكرمُ ما يُحاول ، يا إبراهيم ، لقد حبَّبت إلى العفو حتى خفتُ ألا أوجر عليه .. أما لو علم الناس مالنا فى العفو من اللَّذة لتقربوا إلينا بالجنايات ، ولا تثريب عليك .. يغفر الله لك .. ولو لم يكن فى حقِّ نَسَبِك ما يبلغ الصفح عن زلتك ، لَبَلغكَ ما أملت حُسْنُ تَوَصُّلك ، ولطيفُ تنصُّلِكَ ..

لقد كان المأمون عظيما فى التسامح ، والعفو عن خصومه بعد أن يظفر بِهم .. وهذا شأن الحاكم العظيم الذى يترفع عن الانتقام الرخيص .

عود .. على بدء

منذ بضع سنين كنت أقوم بجولة في صحراء سيوة ، فزرنا حقلاً للبترول اسمه «مبارك» وغادرنا المعسكر الذى يعيش فيه العاملون قبيل غروب الشمس على متن سيارة نقل كبيرة ، وأشار لنا أهل الحقل على الطريق المؤدِّى إلى سيوة ، ولكن يبدو أن السائق تسرَّع ولم يستمع جيدًا إلى الوصف .. رغم أنه من أبناء تلك المنطقة .. واكتشفنا ، بعد نصف ساعة من السير فى الصحراء الشاسعة ، أننا ضللنا الطريق ..!

وتوقفنا .. ولم يجرؤ أحدنا على الكلام .. السائق وزميلى المصور وأنا .. وتذكرت القصص التى كنا نقرؤها عن الضحايا الذين ضلوا فى الصحراء ، فماتوا عطشا .. أو افترستهم الذئاب والضباع ، وهى تنتشر بكثرة فى هذه البقعة من الصحراء الغربية .. وتحسست إناء الماء الذى كان معنا فوجدته فارغًا .. وبدا شبح الموت يقترب حثيثا .. وتذكرت أولادى .. وتجمَّع الماضى كله فى لحظة واحدة .. واستعرضت صفحة حياتى بما فيها من خير وشر .. وشعرت أن أعصاب زميلى بدأت فى الانهيار ، وتسمَّرت عيوننا على قرص الشمس وهو يقترب من خط الأفق .. وبعدها يغوص فى الغروب .. وينزل الليل .. و .. و .. وصراع رهيب يمزق أحشاءنا ..

وفجاة لمحنا أمام قرص الشمس ، شيئًا فى حجم القلم .. أو السيجارة .. ولم يكن هذا الشيء سوى حفار البترول الذى يبلغ ارتفاعه علو مئذنتين ، عندئذ صرخنا من قلوبنا .. الحمد لله .. لقد نجونا . وبدأت السيارة تنهب الرمل كى نصل إلى الحفار قبل أن يغوص قرص الشمس ، فيضيع الأثر الوحيد الذى نهتدى به .. ونجونا .

تذكرت هذه القصة عندما كنت أتلو قول الله تبارك وتعالى : **«هُوَ الَّذى يُسَيِّرُكُم فِى البَرِّ والبَحْرِ حتى إذَا كُنْتُم فى الفُلكِ ، وجَرَيْنَ بهم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وفرحُوا بها جاءَتْها ريحٌ عاصِفٌ وجاءَهُم المَوْجُ منْ كُلِ مكانٍ ، وظَنُّوا أنَّهم أحيط بِهم دَعَوا الله مُخْلِصِينَ له الدِّين لئنْ أنْجَيْتَنا مِن هَذِه لنكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلمَّا أنْجاهم إذا هم يبْغُون فى الأرْضِ بغيْرِ الحقِّ ، يَاأيُّها النَّاس انَّمَا بَغْيُكم على أنْفُسكُم ، متاع الحياة الدُّنْيَا ، ثُمَّ إليْنا مرْجعُكُم فنُنبِّئُكم بما كُنْتُم تعْملُونَ ..»**

ولم أكد أفرغ من قراءة هذه الآيات حتى شعرت بخجل لاذع يسرى فى أوصالى .

والسبب ليس فى حاجة إلى توضيح ..

الأفـــلام الدينيـــة

حتى الآن لم أقتنع بالمحاولات التى قامت بها السينما العربية لإنتاج أفلام مستوحاة من التاريخ الإسلامى ، فالإحساس الذى ينتابنى - بعد مشاهدة هذه الأفلام - أن من صنعوها كان هدفهم تملُّق المشاعر الدينية لدى الجماهير ، واستدرار عواطف الناس تمهيدًا لاستدرار ما فى جيوبهم .. فهى لاتقدم لهم زادًا حقيقيًّا ، ولاتُظْهِر ماتزخر به هذه القصص من معانٍ سامية وأفكار جليلة .

لقد شاهدنا العديد من الأفلام التاريخية والدينية التى أنتجتها ستديوهات هوليوود .. فانبهرنا بها ، والمقارنة قد تبدو ظالمة نظرًا لضخامة الإمكانيات عندهم ، ولكن المؤكد أن الإمكانيات ليست العامل الوحيد وراء نجاحهم .. فهم يتفوقون أيضا فى أفلام متواضعة الإمكانيات ولكنها مضمونة النجاح ، لأنها تحترم عقل المشاهد وتقدم إليه الأفكار المستوحاة حسب المواصفات الفنية ، ومن أهمها البعد عن السطحية والدجل واستخدام أدوات الفن استخدامًا جيدًا خاليًا من الوعظ المباشر ، فالخيط الذى يربط المشاهد بالعمل الفنى ينقطع فى اللحظة التى يشعر فيها أن الشخصية التى أمامه تريد أن تفرض عليه الفكرة .

هذا عن الأفكار التى يزخر بها القصص الدينى .. أما عن

التحركات الجماعية فإن الأمر يبدو أدهى وأمَرّ .. فمعظم هذه الأفلام تحاول إظهار الانتصارات الحربية التى حققها المسلمون .. ولكن المسئولين عن هذه الأفلام لا يكلفون أنفسهم مشقة دراسة الفنون العسكرية عن قادة المسلمين ، ولم يتمكنوا من إبراز ، الأساليب التى اتبعها هؤلاء القادة فى تقسيم الجيوش وتحريك الفصائل والتعامل مع العدو .

ولاتزال المعارك التى تظهر فى أفلامنا تذكرنا بالخناقات التى تحدث بين جماعة من الناس يتضاربون ويتصايحون .. لغير سبب مفهوم .

إن هذه المعارك تثير فى نفسى الكثير من الألم .. والإشفاق .. والاعتذار لهؤلاء العظام .. فقد فشلنا فى إظهار عظمتهم .. ونجحنا فى (بهدلتهم) .

وبمناسبة الأفلام المستوحاة من التاريخ الإسلامى أذكر فيلم «ظهور الإسلام» الذى أُنتج عام ١٩٥٠ عن قصة الدكتور طه حسين «الوعد الحق» ، وتدور أحداثها فى فجر البعثة النبوية ، وتصور فنون التعذيب التى تعرض لها المسلمون الأوائل ، ومنهم ياسر وزوجه سمية وابنه عمار ، حتى إن الرسول ﷺ مر عليهم وهم تحت أدوات التعذيب فقال لهم : «**أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة**» .. ثم ما كان من أمر سمية عندما طعنها أبو جهل فى مكمن العفة ففاضت روحها الطاهرة فكانت أول شهيدة فى الإسلام .

وكان ظهور هذا الفيلم .. فألاً حسنًا على كثير من الممثلين الجدد الذين ظهروا فيه لأول مرة ، فقد حققوا بعد ذلك شهرة واسعة ، وإن كان أبرزهم أحمد مظهر – وكان حتى ذلك الوقت ضابطا بسلاح الفرسان – فقام بدور أبى جهل فأداه بطريقة فريدة ، استطاع من خلالها تصوير الحقد الأسود على الدين الجديد ، ولكن دون استخدام للصرخات الهستيرية التى يضعها كتاب السيناريو على ألسنة أعداء الإسلام .

أما منتج الفيلم ومخرجه فكان اسمه إبراهيم عز الدين ، وقد حقق من وراء هذه التجربة اليتيمة أرباحًا طائلة دفعته إلى اعتزال السينما نهائيا .. وانتقل إلى الرفيق الأعلى .

ولم يبق فى ذاكرتى من ملامح هذا الفيلم سوى الحوار الرائع الذى جرى بين ورقة بن نوفل – قريب السيدة خديجة – ورجل دين نصرانى ، وقد جلسا يتحاوران فيما ذكرته خديجة (رضى الله عنها) عن نزول الوحى على زوجها الكريم ﷺ .. فأدرك الرجلان أن إرهاصات السماء قد تحققت .. وإن الله قد اختار لآخر رسالاته عبده ونبيه محمدًا بن عبد الله «ﷺ» .

وقد قام بدور ورقة الممثل القدير عباس فارس ، وقام بدور الراهب الممثل القديم زكى إبراهيم الذى كان يظهر فى الأفلام لبضع دقائق ثم يموت .. حتى مات فعلا منذ سنوات قليلة .

وجـــوه القاهـــرة

من القصص الشائع فى المجتمعات العربية أن مجموعة من الشبان أرادوا قضاء الصيف خارج وطنهم ، فذهب كل منهم على انفراد إلى رجل مجرب طاف الدنيا شرقًا وغربًا ، يسأله النصح والمشورة كى يرشح لكل منهم اسم بلد يوافق هواه وكان الأول صالحًا تقيًا .. وكان الثانى محبا للتجارة وتكديس الأموال وكان الثالث ميالاً إلى العبث محبًا للمجون واللهو ، وكان الرابع من عشاق العلم واقتناء الكتب .. وأسر الرجل إلى كل منهم باسم البلد الذى يتمشَّى مع نزعته فلما ركبوا الطائرات .. فوجئوا بأنهم جميعا قد التقوا فى القاهرة ..!! فمضى كل منهم إلى الجهة التى ترضى هواه .. فالشاب التقى الورع وجد مبتغاه فى حى الحسين والأزهر .. حيث الصلاة فى مواعيدها .. وسماع دروس الشعراوى والسمر فى مقهى الفيشاوى وصلاة الفجر حاضرًا خلف الشيخ فرحات . وأما الشاب المحب للتجارة فاتخذ سبيله إلى قلب المدينة حيث البنوك والشركات وأرباب المال وملوك الصفقات والتلكسات التى لاتكف عن الرنين . . ومضى الشاب الماجن إلى الفنادق ذات الخمسة نجوم .. ومنها إلى الشقق المفروشة حيث التحرر والانطلاق والانغماس فى عالم الليل والهباب الأزرق وأما الشاب المحب للعلم

فقد كان يقضى نهاره فى الطواف على المتاحف ومراكز العلم .. ويقضى ليله بين المسارح ودور الموسيقى وحضور الندوات ومقابلة أهل العلم والأدب .

هذه هى القاهرة : عاصمة القارة الإفريقية بلا منازع .. وقلب العالم العربى بلا جدال .. ومركز الحضارة العربية فى ثوبها الحديث .. ومنبع العلم والأدب والفن .. فيها : الأزهر والحسين والسيدة نفيسة وسانت تريزة وعمر بن الفارض ووكالة الغورى وشارع الهرم .. ثم الهرم نفسه .. أعظم ما خلف الملوك من آثار .. فى ربوعها يعيش : الشعراوى ونجيب محفوظ ومحمد عبد الوهاب وزكى نجيب محمود ومصطفى محمود ومصطفى أمين وفاتن حمامة وعلماء الدين ورواد العلوم والآداب والفنون والصنائع فيها : الورع والتقى والصلاح إلى جانب العبث واللهو .. وفيها المال والتجارة إلى جانب الموسيقى والمسرح .. فيها الفنادق والمطاعم التى ترضى أذواق أصحاب الملايين .. وعربات الكشرى التى تلبِّى حاجة البسطاء والفقراء الذين لايسألون الناس إلحافًا ..

هذه هى القاهرة التى أنشأها المعز لدين الله الفاطمى منذ ألف وثمانية عشر عامًا لتكون ثكنة لجنوده القادمين معه من تونس ثم توالت عليها عصور وعصور .. كلٌّ يضيف إليها حتى أصبحت إحدى كبريات مدن العالم .. تُرى .. ماذا يقول المعز إذا بُعث اليوم من قبره ووقف لحظة من نهار فى ميدان التحرير ليرى جيوش النمل تزحف نحو عشها الخرسانى فى المجمع .. ؟

السيـــدة زبيـــدة

كانت السيدة زبيدة بنت جعفر بن الخليفة المنصور وزوجة الخليفة هارون الرشيد من أشهر نساء العرب كرمًا ونبلاً ، وأعرقهن حسبًا ونسبًا . وقد تَعْجبُ إذا عرفت أنها السيدة العربية الوحيدة التى أنجبت أحد الخلفاء هو محمد (الأمين) . أما كل خلفاء الدولة العباسية – على امتداد ٥٢٥ سنة – فقد جاءوا من أرحام الجوارى والإماء وكانت زبيدة تتذوق الشعر وتقرضه وتغدق الأموال على الشعراء والأدباء والعلماء والأطباء . وكان لها مائة جارية يحفظن القرآن الكريم كل منهن تتلو عُشر القرآن . وكان يسمع فى قصرها دوى كدوى النحل من قراءة القرآن وشملت برعايتها فقراء المسلمين وأرباب التقوى والصلاح ، وأنفقت الأموال الطائلة على المشروعات العمرانية التى تعود بالنفع على عامة المسلمين ، ومن أشهر آثارها (عين زبيدة) فى مكة المكرمة ، وقد أقامتها لتروى الحجيج . وكانت تستمد ماءها من بطون الجبال والوديان وتأخذ مسارها على طول عشرة أميال حتى الحرم ، وقيل إنها أنفقت على هذه العين مليونًا و٧٠٠ ألف دينار.

أنجبت زبيدة للرشيد أكبر أولاده محمد الأمين ولم يكن مثل أبيه عقلاً وحكمةً ولا مثل أمه كرمًا ورفعةً . كان نصيبه من أخلاق

أبويه ضئيلاً ، وكان حظه من الحمق والجهل والسفاهة وفيرًا .. وكانت هذه النقائص تؤرق بال الرشيد وهو بصدد التفكير فى مصير الخلافة بعد وفاته وكان الأمين هو المرشَّح الأول لولاية عهد الرشيد ، ولكن الرشيد كان يعلم أنه ليس أهلاً لهذا المنصب الخطير ، وأن ابنه عبد الله (المأمون) أحق وأجدر لما يتمتع به من حسن العقل والسياسة والتدبير . وعلمت زبيدة بما يدور فى خلد الرشيد فتدخَّلت لديه حتى تثنيه عن عزمه فى تفضيل المأمون على الأمين ، وغلبت عليها عاطفة الأمومة فلم تنظر إلى الأمر بمنظار السياسى الذى يهمه مستقبل الدولة .

دخلت زبيدة على زوجها تعاتبه فى الأمر فقال لها: ويحك .. إنما هى أمة محمد ورعاية من استرعانى الله تعالى مطوقا بعنقى ، وقد عرفت ما بين ابنى وابنك ، ليس ابنك يازبيدة أهلاً للخلافة ولا يصلح للرعية وأراد أن يدلل على قوله عمليا ، فاستدعى ابنه المأمون ، فدخل عليهما وهو يؤدى فروض الطاعة والاحترام ، فقال له أبوه : إنى أريد أن أعهد إليك عهد الإمامة وأُقعِدك مقعد الخلافة فإنى قد رأيتُكَ لها أهلاً ، وبها حقيقًا فلم يكن من المأمون إلا أن بكى وانتحب وقال لأبيه : يا أبتاه .. أخى أحق منى وابن سيدتى ، ولا أخال إلا أنه أقوى على هذا الأمر منى وأشد استطلاعًا ثم دعا لأبيه بما فيه الرشاد والخلاص ، وللعباد الخير والصلاح ، واستأذن منصرفًا ..

وجاء الدور على الأمين فدخل على أبيه وهو يتبختر فى خيلاء

وغطرسة ، فقال له الرشيد : ما تقول أى بنى فإنى أريد أن أعهد إليك ؟ وفوجئ الرشيد برد ابنه : يا أمير المؤمنين .. ومن أحق بذلك منِّى وأنا أسنُّ ولدك وابن قرة عينك ؟!

ولم تقتنع زبيدة بما رأت من تصرف الأخوين ، ولم يشأ الرشيد أن يغضب زوجته ، وحتى يخرج من المأزق قرر أن يجعل ولاية العهد للأمين ثم للمأمون من بعده وكتب بذلك عهدًا وضعه فى جوف الكعبة حتى يكتسب قداسةً واحترامًا .. ولكن الطمع فى الحكم دفع الأمين إلى سرقة الوثيقة .. فقامت الحرب الضروس بين الأخوين .

المـــرأة حاكمـــة

● هل تصلح المرأة للحكم ..؟

إن التاريخ لم يذكر لنا قصة واحدة نجحت فيها المرأة فى هذا المجال .. فكليوباتره سقطت فى بحر العسل قبل أن تسقط فى تجربة الحكم .. وتفرغت لشئون الغرام والهيام حتى انتهى بها الأمر إلى الانتحار .. والمرأة الوحيدة التى حكمت فى تاريخ الإسلام هى (شجرة الدر) ، ولم يكن لها من مقومات الحكم سوى الكيد والخديعة والتآمر ، واستخدام (الأغوات) لقتل المعارضين داخل القصور والحمامات .

وقد وصلت هذه السيدة إلى الحكم فى ظروف غريبة .. فقد كانت مجرد جارية فى حريم السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين .. وسرعان ما أصبحت محظيته المختارة .. وأنجبت منه ابنًا اسمه خليل ، فأعتقها وتزوجها .. وأسلمها ذقنه وحكمه فى آن واحد .. وكانت تدير الأمور أثناء غياب زوجها خارج القاهرة ، وتوقع المراسيم بدلا منه لقدرتها على تقليد خطِّه .. ومات زوجها أثناء معركة المنصورة ضد الصليبيين فأخفت خبر موته حتى انتهت الحرب .. وعندما عاد ابنه الأكبر طوران شاه ليتسلم مقاليد الأمور ، تآمرت على قتله ، وانفردت بالحكم .. فخُطِبَ باسمها فى

المساجد .. وضُرِبَ اسمها على النقود . وظلت تحكم ثمانين يومًا حتى خرجت الشام على طاعتها .. فتزوجت من وزيرها عز الدين أيبك على أمل أن تحكم البلاد من خلاله .. وحقق لها المسكين كل رغباتها ، حتى إذا تخيل أن من حقه أن يتزوج عليها ، لم تتورع عن التآمر عليه .. وأمرت خدمها فخنقوه فى الحمام ، فما علم ابنه - على - قبض عليها وأسلمها إلى أمه لتتصرف معها .. فجمعت جواريها وأمرتهن بضربها بالنعال والقباقيب حتى الموت .

وكانت المرة الأولى والأخيرة فى تاريخ الحكم فى الإسلام .

ومادمنا بصدد الحديث عن تجربة المرأة فى الحكم ، فلا بد من الإشارة إلى بلقيس ملكة سبأ ، التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قصة سليمان عليه السلام ، وكانت بلقيس قد ورثت ملك حمير عن أبيها الهدهاد بن شرحبيل ، ولم تلبث أن فرضت سلطانها على كل اليمن ثم زحفت إلى بابل وفارس وعادت إلى قاعدة ملكها فى سبأ لتنعم بثمار انتصاراتها .. ولكنها لم تكد تفعل حتى وشى بها الهدهد ، وأبلغ سليمان بأنها وأهلها يعبدون الشمس .

وكانت بلقيس تتوقَّد فطنة وذكاء .. وتتمتع بشخصية قوية تطغى على من حولها من الوزراء والمستشارين . فعندما تسلمت برقية سليمان «ألا تعلو علىَّ وأتُونى مسلمين» أدركت أىَّ خطر داهم يحيق بها .. فجمعت مستشاريها ليدلُّوها على التصرف السليم .. فما كان منهم إلا أن قالوا لها : «الأمر لك فانظرى ماذا تأمرين ..» ، وما

جمعتهم لهذا .. وإنما لتسألهم الرأى والمشورة : «ما كُنْتُ قاطعةً أمرًا حتَّى تشهدون» . فلم يسعفوها برأى تستأنس به .. وإنما حملوها المسئولية ، وجعلوا من أنفسهم توابع .. يفعلون مايؤمرون .. وذلك دائما دأب المستشارين الضعاف الذين ينشدون السلامة .. ويفتقرون إلى الشجاعة .

وتحملت بلقيس المسئولية .. واستخدمت ذكاءها فى اختبار حقيقة سليمان .. فبعثت إليه بهدية ، إن قبلها فهو جبار يسكته المال ، وإن رفضها فهو من أرباب العقائد .. عندئذ تسلم معه لله رب العالمين .

ورد سليمان الهدية مشفوعة بإنذار أخير : «فلنأْتِيَنَّهُم بجنودٍ لاقِبَلَ لهم بها ، ولنُخْرِجَنَّهُم منها أذِلَّةً صاغرين» ، فأدركت المرأة الذكية أن سليمان نبىٌّ مرسلٌ .. وليس جابيًا للاموال .. «قالت ربِّ إنى ظلمتُ نفسى وأسلمتُ مع سليمان لله رب العالمين» .

لاحظ أنها قالت «مع» ، ولم تقل أسلمت لسليمان .. فكان إسلامها نقيًّا خالصا لله .. وما كان أحراها أن تكون زوجة لسليمان — كما تقول بعض الأخبار التاريخية — فعاشت معه سبع سنين فى ظلال الإيمان ، ثم ماتت بتدمر بشمال سورية . واكتُشِف تابوتها فى عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك . ويقال إن جسدها وُجِدَ غضًّا .. فأمر سليمان بأن يبنى عليها وعلى التابوت بالصخر .

محاكمة هدهد سليمان

من بين الحيوانات والطيور التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم ، تجمعنى محبة وألفة مع هدهد سيدنا سليمان فنحن نتعاطى هواية واحدة .. هى البحث عن الحقيقة .

وأشهد أن صديقى الهدهد كان صحفيا لماحا ذكيا .. يمارس الصحافة كرسالة ، وليس من أجل الراتب أو الشهرة ، فإذا جاب الفضاء عاد محمَّلا بحصيلة وفيرة من المعلومات المفيدة والأخبار المهمة ، وكانت كل أخباره صادقة خالية من المبالغة والتزويق «والفبركة» .

وكان يمتاز علينا بالثقافة والعمق ، ويقول: إن الجهل والتعصب هما أسوأ ما يصاب بهما الإنسان حيث يفقد القدرة على التمييز بين الحق والباطل .. ولذلك أبدى صديقى استنكاره الشديد عندما شاهد بلقيس وقومها – وهم بشر أكثر رقيًّا من الطير – يسجدون للشمس من دون الله الذى خلق الشمس والقمر والنجوم .. وكل محتويات هذا الكون . من أجل ذلك كان هو أقربنا إلى الملك ، ينقل إليه الأخبار وينقل رسائله إلى ملوك الدول الأخرى ، وكان هذا القُرْب من الملك يضايق بعض الحاسدين والفاشلين ، من الحيوانات والطيور لذلك كانوا يسعون دائما إلى الوقيعة بين الملك

والهدهد . وعندما اكتشفوا غيابه ذهبوا يبلغون الملك ويوغرون صدره فاشتعلت نفس الملك بالغضب وهدد بأنه سيعذبه عذابا شديدا أو ليذبحه إذا لم يقدم له عذرًا مقبولا ..!

وساد التوتر أنحاء المملكة ، وشعرتُ بحزن لاذع لما تخيلت المصير المؤلم الذى ينتظر صديقى : تصورته وهو يتعذب ويتلوى بجسمه النحيل تحت أدوات التعذيب وتخيلته والسكين تمرق فوق رقبته وتفصل رأسه عن جسده .

وزاد ألمى لما وجدت علامات الشماتة ترتسم على وجوه البعض الذين أسعدهم غياب الهدهد .

● وفجأة .. هبط صديقى من الفضاء ..
وبدأت على الفور إجراءات المحاكمة ..

وأشرأبت أعناق سكان المملكة من الجن والإنس والطير والحيوان لرؤية هذا المشهد التاريخى . وتقدم الهدهد من منصة المحاكمة بخطى ثابتة ثم اتخذ مكانه داخل القفص .. وأخذ يتفحص وجوه الحاضرين حتى لمحنى .. فابتسم .. ورفع أصبعه إلى أعلى .. وكأنه يقول لى : لا تقلق ..

وتولَّى الغراب تلاوة قرار الاتهام .

وأشهد أنه كان مليئا بالأكاذيب والنفاق .. فقد زعم أن الهدهد كان مختفيا طوال هذه الفترة لتدبير انقلاب مسلح ضد الملك ..! والأغرب من ذلك أن الغراب قَدَّم إلى المحكمة بعض الأسلحة

والمنشورات التى تم ضبطها فى عش الهدهد ... حتى أدركنا أن صاحبنا يقترب من حد السكين ..!

وسأل الملك الهدهد : هل لديك أقوال أخرى ..

قال المتهم : نعم .

قال الملك : إذن تكلم .

وأخذ صاحبنا يستعد للكلام .. تقدم من منصة المحكمة وحبس سكان المملكة أنفاسهم انتظارًا لما يقول .. وفجأة قال الهدهد للملك :

– أحطت بما لم تحط به .

وبهتنا جميعا .. كيف يتجرأ الهدهد على أن يخاطب ملك الإنس والجن والطير والحيوان بهذه اللهجة ..! ولكنه يبدو أنه كان واثقا من نفسه فقد مضى يسرد مشاهداته فى أرض اليمن .. ويحكى قصة بلقيس وقومها .. كان يتكلم بنبرات واضحة .. وأخذ الارتياح سبيله إلى وجه الملك .. واختفت منه تلك الانقباضة التى لازمته منذ بدء المحاكمة .

وأنهى الهدهد دفاعه واتخذ سبيله إلى القفص ولكن الملك استوقفه .. وقال له : انتظر .

توقف الهدهد عن السير .. واستغرق سيدنا سليمان فى تفكير عميق وأدركت أن الأمر سيسفر عن مفاجأة . وأحسست أن صديقى قد أفلت من الموت بعد البيان الذى ألقاه . ولكن المشكلة

أن سليمان لم يكن يتقبل أى كلام يقال له دون تمحيص ومراجعة ، فبعد برهة قال: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .. اذهب بكتابى هذا ، فألقه إليهم ثم تول عنهم . فانظر ماذا يرجعون .

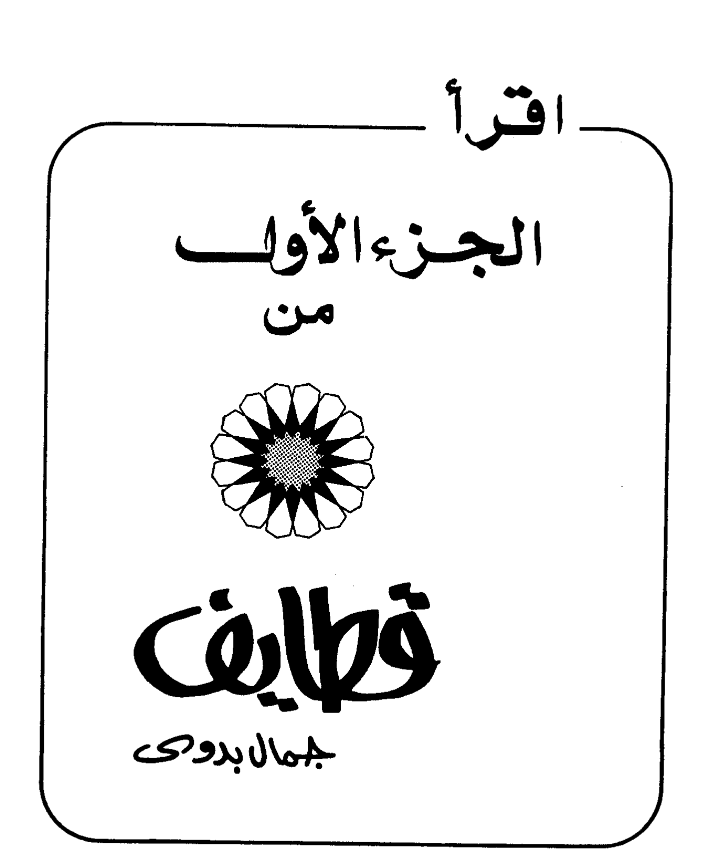
● وثبت أن صديقى كان صادقا .. ولم يكن يتآمر على الدولة كما زعم الغراب . وأخذ يتنقل بالرسائل بين سليمان وبلقيس حتى ألقى إليها بالإنذار الأخير وهو تدمير ملكها إذا لم تدخل فى دين الله ..

وتعجبت لهذه الجرأة من صديقى .. قلت له : ألم تخف أن (يقفشك) أحد زبانية بلقيس فيضغط على رقبتك بأصبعيه ... ؟

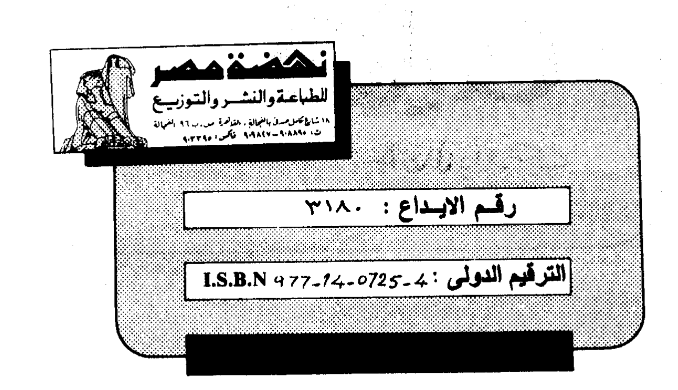
قال : أنا لا أخاف أحدًا ..

وترك للخبراء والمختصين من الجن والعلماء مهمة نقل عرش بلقيس وانتهت مهمة صديقى الهدهد .. وأخذ يستأنف رسالة البحث عن الحقيقة .. سابحا فى فضاء الله العريض .

ومن يومها لم أره .



اقرأ
الجزء الأول
من
قطايف
جمال بدوى



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
١٨ شارع كامل صدقي بالفجالة . القاهرة ص. ب ٩٦ الفجالة
ت : ٩٠٨٨٩٥ - ٩٠٩٨٢٧ فاكس : ٩٠٣٣٩٥

رقم الايداع : ٣١٨٠

الترقيم الدولى : I.S.B.N 977-14-0725-4